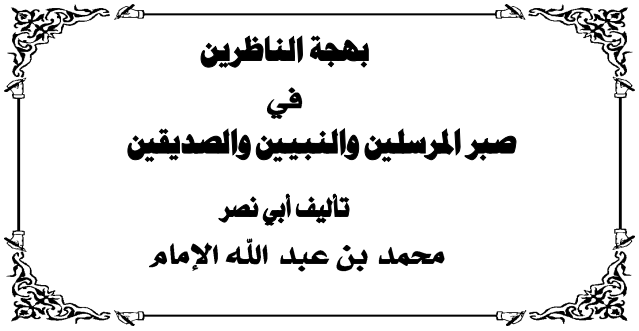

بهجة الناظرين
في
صبر المرسلين والنبيين والصديقين
تأليف أبي نصر
محمد بن عبد الله الإمام

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

مركز دار الحديث – معبر
اليمن – ذمار

موقع الشيخ على الإنترنت
www.sh-emam.com

الإخراج والطباعة
المتخصص للطباعة والنشر – صنعاء
Almotkhasis2004@hotmail.com

بهجة الناظرين

في

صبر المرسلين والنبيين والصديقين

تأليف أبي نصر

محمد بن عبد الله الإمام

دار الحديث معبر


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما بعد: فإن من سنن الله التي لا تتغير ولا تتبدل: ابتلاء العباد وتمحيص المؤمنين بأنواع من الابتلاءات.

وهذه الابتلاءات تعم السراء والضراء؛ فلا ينفك العبد من ابتلاء فأكثر؛ فإن كان الابتلاء بالسراء بأنواع من النعم فكثير من الناس لا يظنه ابتلاءً وهو ابتلاءٌ عظيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥].

وهذا الابتلاء أكثر هلاك الناس فيه بسبب جهلهم بأنه ابتلاء، يحتاج صاحبه إلى شكر الله بطاعته وذكره وحسن عبادته، وهذا الشكر لا يتأتى إلا بالصبر العظيم.

وإذا كان الابتلاء بالضراء فهذا يجلب على المبتلى أمراضًا وآفات، من الجزع والاضطراب والغيظ والضيق والشكوك والحيرة والوساوس والكرب الشديد والخوف المديد، الشيء الكثير.

وقد يؤدي ذلك إلى إنهيار قوى الصلة بالله وافتقاد الرجاء فيه.

وقد تكثر عليه الآلام وتتغير عليه الأحوال وتظلم عليه الدنيا وتضيق الأرض بما رحبت.

فحاجة العبد وهو في كلا الحالتين إلى الدواء العاجل والشفاء الكامل أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب. وقد عُلمَ أن الله جَلَّ جَلَالُهُ «**ما أنزل داء إلا وأنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله**»، كما جاءت الأحاديث بذلك.

فالدواء لهذه الأمراض والآفات لا وجود له إلا بيد مالك الملك ومدبر الأمور والمتصرف في عباده؛ فهو المبتلي لهم وهو المعافي إياهم، وهو أرحم بهم وأعلم بمصالحهم، وأحكم فيما قضاه وقدره عليهم.

ومن ذلك أنه سبحانه أعطى عباده الصادقين وأولياءه المخلصين عطاء أوسع به عليهم أيما إيساع ألا وهو الصبر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والصبر ضياء**»، وسيأتي تخريجهما. فالصبر الدواء لما سبق ذكره.

بل جعل سبحانه قيام الإسلام: بالصبر وذهابه بافتقاده الصبر، وجعل صلاح الدنيا بالصبر وفسادها مع عدم الصبر.

وقد عُلِمَ فضل الصبر وعظيم شأنه وعلو منزلته، حتى أجمعت الأمم وأطبق أهل الأرض على مدحه في الجملة، وقد جعله الله مشتملاً على حياة الناس وجعله زادهم الأعظم إليه بعد الإيمان به؛ فهو الجسر الذي يعبر عليه أهله، وهو الجواد الذي لا يكبو، والصارم الذي لا ينبو، والجند الذي لا يُهزم، والحصن الذي لا يهدم، فهو والعز شقيقان، وهو والنصر أخوان، وهو والبر سيان، وهو والسعادة رفيقان، وهو والقوة متفقان، وهو والحلم متعاونان.

وأما ما يضاده فلا لقاء له به فهو مع الضعف متصارعان، ومع العجلة والطيش متباينان، ومع الجزع متضادان، وهو والشهوات والشبهات معتركان، وهو والكسل والعجز مفترقان، فالصبر دواء من جهة وحِمية من جهة أخرى، وعلى هذا جُعل الصبر سبب كل كمال، وأساس كل جمال، فأكمل الناس أعظمهم صبرا، وأنقصهم أقلهم صبرًا.

فيا أيها القراء الكرام، لي ولكم هذا الرسالة المباركة التي تحتوي على فوائد لا يستغني عنها الساعون إلى الإصلاح، والقائمون بالتصحيح؛ ليتحقق به السير

الفسيح، والعمل الصحيح، والتعاون النجيح، فلكم غُنْمهْ وعليَّ غُرمهْ. وقد سميته: "**بهجة الناظرين في صبر المرسلين والنبيين والصديقين**".

وشكر الله لكل من تعاون معي في إعداد هذه الرسالة وبارك فيهم وأصلح حالهم، وأخص بالذكر زوجتي أم عبد الرحمن؛ فقد تفرغت معي لكتابة هذا البحث في مكة المكرمة حرسها الله في أثناء أداء الحج والعمرة لعام (١٤٣٥هـ).

والله أسأل أن ينفع بهذا المؤلف وييسر طبعه ونشره، ودوام بقائه ونفعه.

وكتبه/ محمد بن عبد الله الإمام

في يوم الأربعاء السابع من شهر ذي الحجة سنة (١٤٣٥هـ).

الفصل الأول: تعريف الصبر وحقيقته وخاصيته ومنزلته وحكمه، وأقسامه، وقواعده وأصوله، وأركانه وشروطه، وغايته وما يكتنفه.

تعريف الصبر:

لا يختلف أهل اللغة أن أصل الصبر: الحبس والمنع، والمراد بذلك: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، وزاد بعضهم: الشدة والضم.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (١٨): «والتحقيق أن في الصبر المعاني الثلاثة: المنع، والشدة، والضم».

قلت: أما المنع فهو بمعنى: الحبس.

وأما الشدة فهي تجرع المرارات، كما يتجرع المريض الدواء الكريه.

وأما الضم فمعناه: أن الصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع، وهذا يرجع إلى الحبس والمنع.

قال ابن الجوزي في "نزهة الأعين النواظر" ص (٣٨٧): «وحكى ابن الأنباري: عن بعض أهل العلم أنه قال: سُمي صبر النفوس: صبرًا، لأن تمرره في القلب وإزعاجه للنفس كتمرر الصَبِر في الفم».

والصبر في الاصطلاح: أوسع منه في اللغة؛ فهو: الصبر على أداء الطاعات، فرضًا ونفلاً، وعلى ترك المنهيات تحريمًا وشبهةً، وعلى مقادير الله النازلة بالعبد إما من باب المصائب وإما عقوبة على المعايب وهي الذنوب. وجماعها: حسن المعاملة مع الله، والصبر على خلقه بمقتضى شرعه.

حقيقة الصبر:

إن للصبر حقيقة عظيمة جدير بكل مسلم ومسلمة أن يعلمها، ألا وهي: مصارعته لباعث الهوى والنفس، فهما: العدوان الداخليان، ومصارعته للشيطان والدنيا وهما عدوان خارجيان.

إيضاح المصارعة المذكورة:

إن الله عَزَّوَجَلَّ رَكَّبَ هذا المخلوق البشري على أربعة أشياء، وهي: القلب، والعقل، والنفس، والهوى، وجعل –سبحانه– الدُولة والغلبة للقلب والعقل، وجعل لهما: منازعين داخليين، وهما: النفس، والهوى، فالقلب تنازعه النفس، والعقل ينازعه الهوى، والإسلام حاكم على الجميع مع تأييده للعقل والقلب وتحذيره لهما من العدوين لهما النفس والهوى. فإذا قضى الله بداوم الدولة للقلب والعقل قيض الله أقوى جنود القلب والعقل ألا وهو الصبر؛ فهو المتصدي لمقاومة النفس والهوى، فالمعركة قائمة ورحاها دائرة بين هؤلاء الأربعة والانتصار والغلبة وعدمها تتحقق بحسب قوة الصبر، والغلبة بالصبر مبناها على الاستعانة بالله والاستنصار به، قال الله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[آل عمران: ١٦٠].

فلا تغفل عن الاستعانة بالله لحظة واحدة.

فإذا انتصر المؤمن بصبره على العدوين الداخليين: النفس والهوى، بقي عليه الحراسة لقلبه وعقله من الأعداء الخارجيين، وهم: شياطين الجن وشياطين الإنس، والدنيا، قال الشاعر:

إني بليت بأربع يرمينني ... بالنبل عن قوس له توتير

إبليس والدنيا ونفسي والهـوى يـا رب أنـت على الخـلاص قـدير

وقد جعل الله المدد من عنده؛ لمقاومة الأعداء الخارجيين أيضًا. فأعدى الأعداء الخارجيين: شياطين الجن، وقد جعل الله لكل واحد منا شيطانًا وهذا الشيطان كافر مسلط على صاحبه، وقد جعل الله لهذا الشيطان مقاومًا أقوى منه ألا وهو الملك، قال الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما منكم من أحد، إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**». أخرجه مسلم رقم (٢٨١٤)، عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وجعل مقاومًا للدنيا ألا وهي الآخرة.

فانظر إلى رحمة الله بعباده أن أمدهم بهذا الإمداد؛ لتكون الغلبة لجنوده: القلب والعقل والملائكة والصبر بقدر استنصارهم به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فلا يغلب هؤلاء أبدًا، ولو اجتمعت عليهم جحافل الأمم وجرارات الجيوش، ما دامت الصلة بالله قوية من قبل هؤلاء الجنود، وما دامت الحراسة قائمة لنصرة الملك والمحافظة على ملكه!

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ **في** "**عدة الصابرين**" ص (٣٤) -بعد ذكره لقوله تعالى: ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾[آل عمران: ٢٠٠]-: «فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان؛ فيزيله عن مملكته».

فاستنصر الله خير الناصرين واستعن بالله خير معين، واستودع الله خير الحافظين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الصبر الاختياري خاصية الإنسان:

خص الله المكلفين من الإنس بالصبر الاختياري: النفسي والبدني، يُفهم هذا جليًا من الآيات الواردة في الصبر؛ فإنها تخاطب الأنبياء والرسل وأتباعهم، وأممهم؛ وسيأتي كثير منها في حكم الصبر، وهكذا يفهم هذا من الأحاديث الواردة فيها.

والحكمة من هذا الاختصاص: قيام الحجة على المكلفين بأن الله قد دعاهم إلى الصبر وأمدهم به؛ لتتكامل به القوتان اللتان أعطاهما الله المخلوق البشري، وهما: قوة الإقدام وقوة الإحجام. فبالصبر يقدم العبد حيث الإقدام، ويحجم حيث الإحجام.

وهذا الصبر الاختياري هو الذي يترتب عليه ما وعد الله به الصابرين. ومن فاته هذا الصبر لجأ إلى صبر الاضطرار الذي يشاركه فيه البهائم.

قال بعض العقلاء: من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم.

وهكذا خص الله الجان بالصبر الاختياري للحكمة السابقة.

قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٣٦): « فإن قيل: فهل يشارك الجن الإنس في هذا الصبر؟ قيل: نعم، هذا من لوازم التكليف، وهو مطية الأمر والنهى، والجن مكلفون بالصبر على الأوامر والصبر عن المناهي، كما كُلفنا نحن بذلك».

قلت: بخلاف الملائكة عليهم السلام، فلا حاجة لهم إلى هذا الصبر الاختياري؛ لعدم وجود المنازع لهم من شهوات وغيرها، فلهم عقول بلا شهوات ولهم صبر يليق بهم، ولا حاجة للبهائم إلى هذا الصبر؛ لأنها سلطت عليها الشهوات.

منازل الصبر المحمود العامة

الأولى: أنه عطاء الله الواسع:

الصبر المحمود هو: عطاء الله الواسع لمن شاء من عباده، وتفضله الخاص على من اصطفاهم واجتباهم وهداهم إلى صراطه المستقيم، من أوليائه وأحبابه.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر!**» أخرجه البخاري رقم (١٤٦٩)، ومسلم رقم (١٠٥٣).

وأخرج الحاكم (٤١٤/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما رزق عبدٌ خير له ولا أوسع من الصبر**». وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وعن إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ما من عبد وهب الله له صبرًا على الأذى وصبرًا على البلاء وصبرًا على المصائب، إلا وقد أوتي أفضل ما أوتيه أحد بعد الإيمان بالله». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٧). وسنده حسن.

وأخرج ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٦٠) وأبو نعيم في "الحلية" (٣٠٥/٧) عن سفيان بن عيينة أنه قال: «لم يعط العباد أفضل من الصبر، به دخلوا الجنة». وهو حسن.

وعن عمر بن عبد العزيز قال على المنبر: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكان ما انتزع منه الصبر، إلا كان ما عوضه خيرًا مما انتزع منه». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٢٢)، والبيهقي في"شعب الإيمان" (٣٧١/١٢)، وابن عساكر في"تاريخ دمشق" (٢٣١/٤٥)، وسنده حسن.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عليه». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٦)، وإسناده حسن.

وقال عمر بن ذر: «اعلم أن الصبر مواهب، ولن يعطاه إلا من كرم على سيده. فاغتنمه ما قدرت عليه؛ لأنك ستجد عاقبته عاجلا وآجلا إن شاء الله». أخرجه ابن أبي الدنيا في "المصدر نفسه"رقم (١٦٧)، والأثر حسن.

وأخرج ابن أبي الدنيا في "الصبر" رقم (٤٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣٧١/٢) عن مالك بن دينار قال: «ما من أعمال البر عمل إلا ودونه عَقِيْبة، فإن صبر صَاحبُها أَفْضَتْ بهِ إلى رَوْح، وإن جزع رَجع». وهو أثر جيد. والمعنى: أن الصبر على أعمال يعقب ذلك عقيبة، فإن صبر صاحب العمل، أوصله ذلك إلى روح، أي: راحة وسعادة، وإن جزع، رجع بدون ذلك.

والمراد من الأثر: أن الصبر يعم أعمال البر.

وقال ابن القيم في "طريق الهجرتين" (٥٧٨/٢): «الصبر سبب فى حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره».

قلت: وعطاء الله: الصبر هو بقدر ما يتسبب العبد في ذلك؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن يتصبر يصبره الله**». أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وعن محمود بن لبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ومن جزع فله الجزع**». أخرجه أحمد (٤٢٨/٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢٣٥/١٢-٢٣٦)، وهو حديث صحيح.

قاعدة هذه المنزلة هي: أن عطاء الله لا يرده راد إلا المانع الذي في العبد.

اعلم أيها المسلم الكريم أن الله يقول: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[فاطر: ٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾[يونس: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾[الرعد: ٤١].

وعلى هذا فنقول: ليس بين المسلم وبين أن ينال ما عند الله حاجز ولا مانع من قبل أحد من الخلق، إلا ما تسبب به العبد نفسه من حرمانه من فضل الله عليه بسبب المعاصي والذنوب. فليتعرف كل واحد منا ما أغلق على نفسه من أبواب الخير، ومن ذلك: الحرمان من الصبر المذكور.

تنبيه: قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين" ص (٢٣)-في بيان سعة الصبر: «فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له».

قلت: نِعم ما قال! ولا يفهم من كلامه أنه بيان لعموم سعة الصبر، بل كلامه وارد في الصبر على المصائب؛ بدليل قوله: نزول البلاء. بل العافية مفتقرة إلى الصبر حتى تدوم، ألا ترى أن الصبر على أداء الطاعات والصبر على ترك المحرمات هو في حال العافية، وهو أوسع من الصبر على المصائب، بل هذا الصبر من العافية.

المنزلة الثانية: الصبر ضياء:

وأصل هذا: ما رواه الإمام مسلم رقم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطهور شطر الإيمان ... والصبر ضياء**».

قال الإمام البيهقي في "شعب الإيمان" (١٩٦/٥): «سمي الصبر ضياء؛ لأن الشهوات إذا انقمعت به انجلى من القلب الظلام الغاشي إياه باستيلاء الشهوات على النفس؛ فأبصر مواقع النفع له من عبادة الله تعالى، فآثرها وابتدر إليها، ومواقع الضرر الذي يلحقه من معاصي الله فاعتزلها وكف عنها».

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وجدنا خير عيشنا الصبر».

أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في "صحيحه". قال الحافظ في "الفتح" (٣٠٣/١١): وقد وصله أحمد في كتاب الزهد بسند صحيح عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب: «وجدنا خير عيشنا بالصبر».

قلت: أخرج الموصول أحمد في "الزهد" رقم (٦١٢)، ووكيع في "الزهد" رقم (١٩٨)، وابن المبارك في "الزهد" رقم (٦٣٠، ٩٩٧)، وأبو نعيم في "الحلية" (٥٠/١)، من طريق مجاهد عن عمر، ومجاهد لم يلق عمر، كما ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه في "العلل" (٢٣١/٢).

لكن قال الحافظ في "الفتح" (٣٠٣/١١): وأخرجه الحاكم من رواية مجاهد عن سعيد بن المسيب عن عمر.

قلت: ورواية سعيد بن المسيب عن عمر صحيحة، على القول الراجح.

وأخرجه أبو نعيم في "أخبار أصبهان" (١٦٥/٢) عن عمرو بن الحارث...فذكره. فالأثر صحيح.

وعن عون بن عبد الله، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من يتفقد يفقد، ومن لا يعد الصبر لفواجع الأمور يعجز». أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" رقم (٣٥٧٣٩)، وابن المبارك في "الزهد" رقم (٩)، وأبو داود في "الزهد" رقم (٢١٦)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢١٨/١)، وهو صحيح إلى عون بن عبد الله. وعون الذي يظهر عدم سماعه من أبي الدرداء.

وعن عمر بن عبد العزيز قال: «الرضا قليل، ولكن الصبر معول المؤمن». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان" رقم (١٩)، وعبد الله بن أحمد

في "زوائد الزهد" رقم (١٧٢٢)، وابن سعد في "الطبقات" (٣٧٢/٥)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣٤٢/٥)، والأثر له طرق يتقوى بها.

ومعنى: «معول المؤمن» أي: يعتمد عليه، ويستند إليه.

وعن ميمون بن مهران قال: «ما نَالَ أحد شيئًا من جسيم الخير، نبي فمن دونه، إلا بالصبر». أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد كما في "سير أعلام النبلاء" (٧٨/٥)، وابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٩)، وأبو نعيم في "الحلية" (٩٠/٤)، وذكره ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (١٧٧)، وهو صحيح.

وعن إبراهيم الخواص: «من لم يصبر لم يظفر. وإن لإبليس وثاقين ما أوثق بنو آدم بأوثق منهما: خوف الفقر، والطمع». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣٢٥/١٠)، والأصبهاني في "سير الصالحين" (١٣٢٥/٤)، وسنده صحيح.

وقال عروة بن الزبير: رب كلمة ذل احتملتها، فأورثتني عزًا طويلاً!». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٧٧/٢)، بسند جيد.

وعن صالح بن عبد الكريم قال: «جعل الله رأس أمور العباد العقل، ودليلهم العلم، وسائقهم العمل، ومقويهم على ذلك الصبر».أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٨٨).

وعن مجاهد بن جبر المكي قال: «الصبر معقل». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٨٠).

وقال المناوي في "فيض القدير" (٢٨٨/٦): «والصبر: القوة على مقاومة الآلام والأهوال وغيرها؛ فهو شامل للصبر على كل شدة ومصيبة. فليتخذ عدة؛ فهو من أشرف العدد، وليقرع به باب المهمات؛ فإنه مفتاح الفرج. ومن لج ولج ومن جد وجد، ولكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر. قال بعضهم: وجميع المراتب العلية والمراقي السنية الدينية والدنيوية إنما تنال بالصبر».

وقال ابن حبان في "روضة العقلاء" ص (٢٢٠): «الصبر جماع الأمر، ونظام الحزم، ودعامة العقل، وبذر الخير، وحيلة من لا حيلة له».

قلت: ما أجمل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والصبر ضياء**». إنها من جوامع الكلم التي أوتيها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإن عليها لحلاوة وطلاوة، وإن النفوس لتبتهج عند سماعها، كيف لا والضياء أعظم من النور بأضعاف مضاعفة؟! فبينما المسلم يبحث عن النور فإذا بالرسول يدله على الأنوار العظيمة ويوجز له ذلك بقوله: «والصبر ضياء» وقد جعل الله الضياء للشمس والنور للقمر، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[يونس: ٥].

فانظر كم الفرق بين ضياء الشمس ونور القمر، والشمس في أول النهار ضياؤها أقوى وحرارتها أشد وفي آخر النهار أخف وأهدأ. وهكذا الصبر في أوله عند نزول المصيبة أو ورود الأوامر أو النواهي يكون أشد، ولا بقاء عليه إلا بتجرع المرارات، ثم يسهل الصبر شيئًا فشيئًا حتى يصير معتادًا وزادًا وقوة وصفة من صفات الصابرين.

المنزلة الثالثة: أدلة الصبر أكثر من أدلة أركان الأخلاق:

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر الله الصبر في القرآن في نحو تسعين آية».

وقال أبو طالب المكي في "قوت القلوب" (١٩٧/١): عن بعض العلماء أنه قال: «أي شيء أفضل من الصبر وقد ذكره الله في كتابه في نيف وتسعين موضعًا؟! ولا نعلم شيئًا ذكره الله تعالى بهذا العدد إلا الصبر».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٣٩/١٠) «وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا».

وقال الإمام الشوكاني في رسالته "النشر لفوائد سورة العصر" (١٠٠-١٠١): «وقد ورد في شرف الصبر ومزيد فضله من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما لو جمع لكان مؤلفًا مستقلاً».

قلت: والناظر في "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" يجد أن مادة : «صبر» بجميع مشتقاتها قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من مائة موضع.

فهذا يدل على أن أدلة هذا الخُلق العظيم (الصبر) تفوق أدلة أركان الأخلاق كالعدل والرحمة والأمانة أضعافًا مضاعفة فإلى جانب أن الصبر ركن من أركان الأخلاق، فهو أعظمها وأجلها؛ لحاجتها إليه في كل وقت.

وأيضًا: أدلة الصبر كثر فيها الأمر بالصبر لعموم المسلمين، وكثر فيها الأمر به للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خصوصًا ما لم يؤمر بهذه الكثرة في أي عبادة ومعاملة وأخلاق. ألا تدل هذه الكثرة على ما أوضحناه: أن الصبر فوق ما نفهم وأعظم مما نتصور، وأكبر مما نعلم، وأجل مما نعرف؟! فهذه دلائل على علو الصبر وأهميته وعظيم الحاجة إليه وشدة الافتقار إليه زيادة على غيره مما ذكرنا.

المنزلة الرابعة: الصبر أُمُّ الوسائل، ومكمل الفضائل، ومقوم الغايات:

الوسائل الشرعية كثيرة، ومن أمهاتها: العدل والرحمة والصدق والأمانة، وأم هذه الوسائل وأمثالها: الصبر، وهو أيضًا مقوم الغايات ومكمل الفضائل، قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "زاد المعاد" (٣٣٣/٤): «وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب في العالم، رأيتها كلها منوطة بالصبر، وإذا تأملت النقصان الذي يُذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيته كله من عدم الصبر. فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار كله صبر ساعة».

وقال أيضًا في "المصدر نفسه": «ولذة الدنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظفر فيهما لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط».

وقال العلامة ابن عاشور في كتابه "أصول النظام الاجتماعي" ص(١٢٠-١٢١) بعد ذكره لأمور عظيمة من الخير: «والصبر ملاك ذلك كله والتدرب عليه وسيلة النجاح؛ لأن جلائل الأعمال كلها يعترضها ضعف المقدرة وتثبيط الكسل، وإنكار الجهال ولوم اللوام. فلا تفل حدة ذلك كله إلا بالصبر».

قلت: الصبر وسيلة إلى كل غاية فأريح الناس من توسل به إلى الله والدار الآخرة، وهذا الصبر ينتفع به في المعاش والمعاد، كما أن أخسر الناس من اتخذ الصبر وسيلة إلى كل غاية مذمومة.

المنزلة الخامسة: مقامات الإسلام والإيمان تفتقر إلى الصبر:

قال العلامة ابن القيم في كتابه "عدة الصابرين" ص (٢٨-٣٠) وهو يتحدث عن الصبر: «فإنه إن كان صبرًا عن شهوة الفرج المحرمة سمي عفة وضدها الفجور والزنا والعهر، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يحمل منه سُمي شرف نفس وشبع نفس وسُمي ضده شرها ودناءة ووضاعة نفس، وإن كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمي كتمان سر وضده إذاعة وإفشاء أو تهمة أو فحشاء أو سبا أو كذبًا أو قذفًا وإن كان عن فضول العيش سمي زهدًا وضده حرصًا، وإن كان على قدر يكفي من الدنيا سمي قناعة ويضادها الحرص أيضًا، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمي حلمًا وضده تسرعا وإن كان عن إجابة داعي العجلة سُمي وقارًا وثباتًا وضده طيشًا وخفة، وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سُمي شجاعة وضده جبنًا وخورًا،

وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سُمي عفوًا وصفحًا وضده انتقامًا وعقوبة وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سُمي جودًا وضده بخلاً، وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سُمي صومًا، وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سمي كيسًا، وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكلِّ[1]. على الناس وعدم حمل كلَّهم سُمي مروءة. فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه، والاسم الجامع لذلك كله: الصبر. وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها، وكذا يُسمى عدلاً إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم سُمي سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار. وعلى هذا منازل جميع الدين».

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "شرح مشكاة المصابيح"** (٧/٢): «إن الصبر بنيت عليه أركان الإسلام، وبه أحكمت قواعد الإيمان».

قلت: يدل على ما سبق ذكره قول ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٠ – ٢٢].

بعد هذا كله قال سبحانه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٤].

ويدل على ذلك أيضًا الآيات في سورة الفرقان من قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ إلى قوله

---

(١) الكلَّ: الثقل من كل ما يتكلف.

سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٥].

وأمثال هذه الأدلة كثيرة.

قال الطيبي في "شرح المشكاة" (٧/٢): «فوضع الصبر موضع تلك الأعمال الفاضلة والأخلاق المرضية؛ لأنه ملاكها، وعليه يدور قطبها».

المنزلة السادسة: قيام عبودية الله كلها على ساق الصبر ومن ذلك الأمر والنهي:

قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٤٩): «فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر، لا تستوي إلا عليه، كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها، فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر».

وقريب من كلام ابن القيم هذا كلام العلامة ابن عاشور في "أصول النظام الاجتماعي" ص (١٢٠)قال: «الإحسان أن يتذكر أن الله يراه في سائر أعماله فيعبده بامتثال أوامر شرعه واجتناب نواهيه، كأنه يراه ماثلاً هو بين يديه، والصبر ملاك ذلك كله، والتدرب عليه هو وسيلة النجاح».

قلت: إيضاح هذا الكلام بالآتي:

اعلم أن لله تعالى على عبده حُكْمين:

أحدهما: شرعي ديني. **وثانيهما**: كوني قدري. فالشرعي متعلق بأمره والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر. وحُكمه الديني الطلبي نوعان: إما وجوبًا وإما استحبابًا، ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركه إما تحريمًا وإما كراهة، وذلك أيضًا موقوف على الصبر. فهذا

حكمه الديني الشرعي، وأما حكمه الكوني القدري فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها، ففرضه الصبر عليها.

المنزلة السابعة: الصبر نصف الإيمان:

جعل الله الإيمان في كتابه نصفين: نصف صبر ونصف شكر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[إبراهيم: ٥].

وقوله تعالى في قوم سبا: ﴿ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[سبا: ١٩]، وغيرها من الآيات.

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له**». أخرجه مسلم رقم (٢٩٩٩).

وأخرجه أحمد (١/١٧٣)، والبزار كما في "كشف الأستار" رقم (٣١١٦)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (١٠٦٧)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وإسناده حسن.

قال القرطبي في "المفهم" (٦/٦٣٠): «قوله: «وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن» أي: المؤمن الموصوف بما ذكرته؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة ولم يحتسبها، بل يتضجر ويتسخط».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "جامع المسائل" (١/١٦٥): «هذا الحديث يعم جميع أقضيته لعبده المؤمن، وأنها خيرٌ له إذا صبر على مكروهها وشكر لمحبوبها».

وعن سخبرة الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظَلم فاستغفر، وظُلم فغفر**» ، ثم سكت، فقالوا: يا رسول الله، ما له؟ قال: «**أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**». أخرجه الطبراني في "الكبير" (١٣٨/٧)، وفيه ضعف.

وعن عبيد بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سئل رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان قال: «**الصبر والسماحة**». أخرجه الحاكم (٦٢٦/٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣٥٧/٣)، وفيه كلام. وقد بينت عظمة هذا الحديث في كتابي: "العدل في الأموال قوام العالمين".

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس باد الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٨)، ووكيع في "الزهد" رقم (١٩٩)، وهو أثر حسن.

وعن عثمان يزيد بن مرثد الهمداني، عن أبي الدرداء، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان يقول: «ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضى بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب عَزَّوَجَلَّ». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٢١٦/١).وهو حسن إلى أبي عثمان وروايته عن أبي الدرداء مرسلة.

وقال قتادة: «الصبر من الإيمان بمنزلة اليدين من الجسد. من لم يكن صابرًا على البلاء لم يكن شاكرًا على النعماء» أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٦٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة في الصبر" ضمن "جامع المسائل" (١٦٥/١) في حديث صهيب السابق: «فهذا الحديث يعم جميع أقضيته لعبده المؤمن، وأنها خيرله إذا صبر على مكروهها وشكر لمحبوبها، بل هذا داخل في

مسمى الإيمان؛ فإنه كما قال بعض السلف: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر».

قلت: قوله: كما قال بعض السلف: «الإيمان نصف صبر ونصف شكر»

هذا القول جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولفظه: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٠٣)، والطبراني (١٠٤/٩)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣٤/٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٩٢/١٢-١٩٣)، وهو أثر صحيح.

وقد جاء بلفظ: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله». ولا يصح مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتابه "الشكر" رقم (٥٧) عن عامر الشعبي قال: «الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله». وهو أثر صحيح.

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: «نعم العبد الصابر الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر». أخرجه أحمد في "الزهد" رقم (١٣٥٨)، وسنده صحيح.

وقال العلامة السعدي كما في "مجموع مؤلفاته" (١٣٤/٢٣): «واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجثمان، فمن لا صبر له فليس له يقين ولا إيمان».

وقبله قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٨-٩): «والصبر آخيّة المؤمن التى يجول ثم يرجع إليها وساق إيمانه التي لا اعتماد له الإ عليها؛ فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف».

وقال العلامة ابن عاشور في "تفسيره" (٤٧٩/١): «إذا تأملت وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر؛ فإن فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو مغيب عن الحس الذي اعتادته، وبوجوب طاعتها واحدا من

جنسها لا تراه يفوقها في الخلقة وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها من الديانات السابقة. فإذا صار الصبر خلقا لصاحبه هون عليه مخالفة ذلك كله لأجل الحق والبرهان».

وقد ذكر العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيرات للتنصيف المذكور باعتبارات عشرة في كتابه "عدة الصابرين" ص (٢٠٥-٢٠٩)، ولم يرجح شيئًا منها، وهذه الاعتبارات أكثر ما وقفنا عليه، وكثير من العلماء يذكرون اعتبارين فقط:

الأول: أن يراد بنصف الصبر الأحوال المثمرة للأعمال، كالوفاء والإتقان والاستمرارية وغير ذلك.

الثاني: العمل بمقتضى اليقين، وذلك أن العبد المسلم يعلم أن الطاعة نافعة والمعصية ضارة، ولا يقدر على المثابرة على الطاعة، وعلى اجتناب المعصية إلا بالصبر. وسيأتي مزيد لمسألة الشكر والصبر في محلها إن شاء الله.

قاعدة هذه المنزلة هي: «أن الله سبحانه يبتلي بنعمه وينعم بابتلائه»:

وبيانها: أن الله قد جعل جميع النعم التي يسديها إلى العباد لحكم عظيمة، ومن أعظم هذه الحكم: الابتلاء بها، والابتلاء بها ليعلم الله شكر العبد له من كفره، وذكره له من نسيانه، وطاعته له من عصيانه. فإذا وطَّنَ العبد نفسه على شكر الله وذكره وطاعته وحسن عبادته، صار هذا الابتلاء في حق العبد نعيمًا عليه وسببًا لتمكين الله لصاحبه، ورفعًا لدرجاته في الآخرة وغير ذلك من التنعيم الإلهي، وإن انشغل العبد بالنعمة عن المُنعم عليه وأقبل على تعظيمها لا على تعظيم المنعم، كانت هذه النعم سببًا لهلاك صاحبها، إلا أن يتداركه الله برحمته. ولهذه المسألة مثالان: سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقارون، فسليمان قال فيما أنعم الله عليه به: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[النمل: ٤٠]. وقارون قال فيما أنعم الله عليه به: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾[القصص: ٧٨].

فسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله له: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾[ص: ٣٩ – ٤٠].

فأبقى الله له النعمة، ووعده في الآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأما قارون فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[القصص: ٨١].

المنزلة الثامنة: الصبر دواء الفتن والآفات:

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾[الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل: ١١٠].

وعن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن السعيد لمن جنب الفتن! إن السعيد لمن جنب الفتن! إن السعيد لمن جنب الفتن! ولمن ابتلي فصبر فواها!**». أخرجه أبو داود رقم (٤٢٦٣)، والطبراني في "الكبير" (٢٥٢/٢٠)، وأبو نعيم في "الحلية" (١٧٥/١)، وهو حديث صحيح. ومعنى «فواهًا» أي عجبًا له ما أطيبه!

قال في "مختار الصحاح" ص (٧٣٩): «وواهً: إذا تعجب من طيب الشيء، قلت: واهًا له ما أطيبه»!

وقال في "عون المعبود" (٢٣١/١١-٢٣٢): «فواهًا معناها الإعجاب والإستطابة أي: ما أحسن وما أطيب صبر من صبر عليها».

وأخرج البيهقي في "شعب الإيمان" (٤٣٥٩). بسندٍ رجاله ثقات عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «العاقل من عقل عن الله عَزَّوَجَلَّ أمره، وصبر على بلوى زمانه»!

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" ص (٢٦٩): «كل الأرباح في الصبر، وكل الخسران في موافقة النفس، وكفى بهذا موعظة في مخالفة الهوى لأهل النهى»!

وقال العلامة ابن القيم في "إغاثة اللهفان" (٨٩٦/٢): «فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له، ومخلصة من الذنوب، كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة.

فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب: قال تعالى:﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[العنكبوت: ٣] .

فالفتنة قسمت الناس إلى صادقٍ وكاذبٍ ومؤمن ومنافق، وطيبٍ وخبيثٍ. فمن صبر عليها كانت رحمة فى حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها»!

وقال أيضًا في "عدة الصابرين" (١٢٢): «فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه».

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٤٨٣/٢): «فكل من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله، عَزَّوَجَلَّ».

وقبل هذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية، كما في "المستدرك على الفتاوى" (١٢٧/٥): «عامة الفتن التي وقعت من أعظم أسبابها قلة الصبر؛ إذ الفتنة لها سببان: إما ضعف العلم، وإما ضعف الصبر».

قلت: إذا اجتمع مع الصبر العلم كانت الأدوية كافية شافية من كل وباء، بإذن الله تعالى.

وهذا يتم إذا كانت هذه الأدوية على يد أطباء القلوب:

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "نونيته"** (٢/٢٢٣):

والجهل داء قاتل وشفاؤه أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن أو من سنة وطبيب ذاك العالم الرباني

المنزلة التاسعة: الصبر وإن كان مركبًا صعبًا ولكنه يُهوِّن كل الصعاب بإذن الله:

جعل الله الصبر دواء للأدواء وشفاء من الأمراض، خصوصًا الصبر الذي بلغ بصاحبه إلى حد اليقين بوعد الله ووعيده، ففي الحديث: «**اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا!...**» . أخرجه الترمذي رقم (٣٥٠٢)، والحاكم (٥٢٨/١)، والطبراني في "الدعاء" (٥٣٥/١)،من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه الترمذي، والبغوي في "شرح السنة" (١٧٤/٥)، وابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" (٦٥٧/٤)، والألباني.

وقال ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١١٨) حدثنا خالد بن خداش قال: قال لنا صالح المري: «لو كان الصبر حلوا ما قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اصبر)، ولكن الصبر مر». وهو حسن.

وقال ابن أبي الدنيا في "المصدر السابق" رقم (٢٧) حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا أبو اليمان، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب قال: «الحلم زين، والتقى كرم، والصبر خير مراكب الصعب».

قلت: والصبر مركب صعب؛ لأنه يجمع تحمل الشدائد كلها، كما سيأتي إيضاح هذا في قواعد الصبر، وقد أبان الشعراء في شعرهم عواقبه الحميدة:

قال الشاعر:

الصبر مفتاح ما يُرجَّى وكل صعب به يهون
فاصبر وإن طالت الليالي فَرُبَّما طاوَعَ الحُزُونُ
وربما نيل باصطبار ما قيل: هيهات لا يكون

وقال آخر:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقال أبو حية النميري:

إني رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في أمرٍ يؤلمه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال الشاعر:

اصبر ففي الصبر خير لو علمت لكنت باركت شكرًا صاحب النعم
واعلم بأنك إن لم تصطبر كرمًا صبرت قهرًا على ما خطَّ في القلم

وقال ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٦٩): حدثني المشرق بن سعيد القرشي، حدثني أحمد بن واصل الكوفي قال: كنت أكتب للطالبيين، وكانت امرأة من أهل مكة تكاتبهم قال: فكتبتْ إليهم:

أما والذي لا خلد إلا لوجهه ومن ليس في العز المنيع له كفو
لئن كان بدء الصبر مُرًّا فعقبه لقد يجتنى من غبه الثمر الحلو

المنزلة العاشرة: كل عبادة لا تتم على وجه الكمال إلا بأن يكون الصبر قبلها ومعها وبعدها:

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (١١٨): « ويحتاج العبد ها هنا إلى الصبر في ثلاث أحوال:

أحدها: قبل الشروع فيها، بتصحيح النية والاخلاص وتجنب دواعى الرياء والسمعة، وعقد العزم على توفية المأمور به.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل فيلازم الصبر عن دواعى التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدى المعبود، وأن لا ينساه في أمره، فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحبا لذكره في أمره، فهذه عبادة العبيد المخلصين لله. فهو محتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها، ولا يشتغل عنه بعبادته فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يُصَبِّر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[البقرة: ٢٦٤]. فليس الشأن في الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعاظم بها؛ فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية؛ فإن العبد يعمل العمل سرًا بينه وبين الله سبحانه فيكتب له في ديوان السر، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل».

المنزلة الحادية عشرة: لا يستغنى عن الصبر في حال من الأحوال:

الصبر المحمود خادم لكل وسيلة وموصل إلى كل غاية، وأحوال العباد كلها لا تخرج عن وسائل وغايات، فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين العباد.

قال صالح بن عبد الكريم[1]: «جعل الله رأس أمور العباد العقل، ودليلهم العلم، وسائقهم العمل، ومقويهم على ذلك الصبر». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٨٨).

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (١١٤) عن الإنسان: «ما دام قلم التكليف جاريًا عليه لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال، فإنه بين أمر يجب امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدر يجب عليه الصبر اتفاقًا، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها. وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه، فالصبر لازم له إلى الممات. وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين: أحدهما: يوافق هواه ومراده. والآخر: يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما».

---

(١) هو صالح بن عبد الكريم البغدادي العابد، أخذ عن سفيان الثوري وغيره، وكان يقول: يا أصحاب الحديث، ما ينبغي أن يكون أحد أزهد منكم، إنما تقلبون دواوين الموتى، ليس بينكم وبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدٌ إلا وقد مات. توفي بعد المائتين بقليل. ينظر "تاريخ الإسلام" (٩١/٥)، للإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أخي القارئ، فهذه منازل الصبر العامة، أي: لعموم الخلق والعباد جمعناها للقارئ الكريم في مكان واحد ليسهل فهمها وقراءتها. وهي بهذا العدد الكبير بدون استقصاء؛ خشية الإطالة المملة والإسهاب المخل؛ نفعنا الله بها بمنه وكرمه!

أسس الصبر:

أسس الصبر وأصوله التي يقوم عليها كثيرة، قال ابن عاشور في "تفسيره" (٢٩٥/٢٤): «التخلق بالصبر شرط في الاضطلاع بفضيلة دفع السيئة بالتي هي أحسن، وأنه ليس وحده شرطا فيها، بل وراءه شروط أخر، يجمعها قوله: حظ عظيم، أي من الأخلاق الفاضلة».

وأسس الصبر التي أردنا ذكرها كالآتي:

١) **الإيمان: وهو أعظم أسس الصبر.**

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**». أخرجه مسلم رقم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأنفع الإيمان هو الإيمان القوي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٤٥/٢٠): «كلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له؛ وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم».

وقال العلامة ابن الأمير الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ **في "سبل السلام"** (٢٠٧/٤) وهو يشرح الحديث المذكور: «المراد من القوي: قوي عزيمة النفس في الأعمال الأخروية؛ فإن صاحبها أكثر إقدامًا في الجهاد وإنكار المنكر والصبر على الأذى في ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله، والقيام بحقوقه من الصلاة والصوم

وغيرهما. والضعيف بالعكس من هذا، إلا أنه لا يخلو عن الخير؛ لوجود الإيمان فيه».

٢) **التفقه في الدين**: قال الله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٨].

قال الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١٣٩/٢): «وقد جعل الله العلم وسائل أوليائه ، وعصم به من اختاره من أصفيائه، فحقيق على المتوسم به استفراغ المجهود في طلبه».

وقال شيخ الإسلام كما في "المستدرك على مجموع الفتاوى" (١٢٧/٥): «عامة الفتن التي وقعت من أعظم أسبابها قلة الصبر؛ إذ الفتنة لها سببان: إما ضعف العلم، وإما ضعف الصبر؛ فإن الجهل والظلم أصل الشر، وفاعل الشر إنما يفعله لجهله بأنه شر، وتكون نفسه تريده فبالعلم يزول الجهل، وبالصبر يحبس الهوى والشهوة فتزول تلك الفتنة».

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (٩٦): «فالصبر وإن كان شاقاً كريها على النفوس فتحصيله ممكن. وهو يتركب من مفردين العلم والعمل، فمنهما تركب جميع الأدوية التى تداوى بها القلوب والأبدان. فلا بد من جزء علمي، وجزء عملى فمنها يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية».

قلت: الضعف في العلم الشرعي أصل كل شر وأساس كل فتنة؛ فضعفه ضعف في الصبر وغيره، وقوته قوة للصبر وغيره. والصبر زاد للعلم خصوصًا عند ضعف الرغبة فيه. وفي هذه الحال نقول: لا علم إلا بالصبر عليه، بل حاجة العلم إلى الصبر في هذه الحال أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب. فطلاب العلم إما أن يحتاجوا إلى الصبر من أول طلبهم حتى تقوى الرغبة فيه فتخف الحاجة إلى الصبر، وإما أن يطلبوا العلم برغبة عظيمة في أول طلبهم فتكون

حاجتهم إلى الصبر خفيفة ثم يعقب هذه الرغبة ضعف، فهنا يحتاجون إلى الصبر العظيم، وإلا انقطعوا عنه انقطاع من لا يعود إليه، وربما تُصُوِّرَ العلم في هذه الحالة كأنه وحش، المطلوب الفرار منه، وإما أن يُحتاج إلى الصبر العظيم في كل مراحل طلب العلم من بدايته إلى أن يلقى الله وهو على ذلك، وهذا الصنف أعظم أجرًا وأكثر ثوابًا على طول صبره، وثباته وقَلَّ من يوفق لهذا.

٣) **التوكل على الله**: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[النحل: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[العنكبوت: ٥٨ – ٥٩].

قال العلامة ابن عثيمين في "التفسير" (٥٩٨/٦): إنه ينبغي للصابر أن يعتمد على ربه في صبره، لقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾. وفائدة اعتماده في صبره على ربه: **أولاً**: الثبات على ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾[الطلاق: ٣].

الثاني: أن صبره يكون عبادة، لأن بعض الناس يصبر ويتجلد على حدِّ قول الشاعر:

وتجـــلدي للشـــامتين أريهـــمُ أني لريـــب الدهـــر لا أتضعضـــعُ

هذا الصبر لا شك أنه يكون جميلاً لكن لا يثاب عليه، إذًا نقول: إن الصبر المقرون بالتوكل على الله سبحانه وتعالى هو الذي يكون فيه الثواب والأجر».

٤) **المحافظة على الصلوات الخمس**: قال الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾[البقرة: ٤٥].

أخرج ابن جرير في "تفسيره" (٦٢٠/١) بسند صحيح عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نعي إليه أخوه قثم وهو في سفرٍ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥].

وأخرجه المروزي في "تعظيم الصلاة" رقم (٢٠١)، والحاكم في "المستدرك" (٢٦٩/٢-٢٧٠) عن زيد بن علي بن الحسين، عن أبيه قال: نعي إلى ابن عباس ابن له وهو في سفر فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم نزل فصلى ركعتين، ثم قال: فعلنا ما أمر الله به، وتلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[البقرة: ٤٥]. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرج ابن سعد في "الطبقات" (١٣٥/٣) بسند صحيح عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، عن أمه أم كلثوم، وكانت من المهاجرات الأُوَل، في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[البقرة: ٤٥]. قالت: «غشي على عبد الرحمن بن عوف غشية ظنوا أن نفسه فيها، فخرجت امرأته أم كلثوم إلى المسجد تستعين بما أمرت أن تستعين به من الصبر والصلاة».

وأخرج ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢٦٢/١)، عند هذه الآية عن سعيد بن جبير قال: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله؛ رجاء ثوابه. وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر». وهو أثر حسن.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٣٦١/٢٨) بعد ذكره للآية المذكورة: «وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ...الصلوات بالقلب والبدن...والصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب».

وقال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٩٢): «الصبر والصلاة هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة».

قلت: الصلاة صلة بين العبد وربه، فكلما حافظ المسلم عليها دامت صلته بالله وجاءه المدد من الله بإصلاح حاله. فإذا كان الصبر مصاحبًا للصلاة كانت الصلة بالله أعظم وأكمل وأدوم، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "السياسة الشرعية"** ص (١٨٦): «فالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية».

٥) **شكر الله على نعمه**: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[إبراهيم: ٥]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث.

وقد تقدم أن الإيمان نصف شكر ونصف صبر. ونذكر هنا كلمة عن نصفه الآخر (الشكر) فالشكر هو: الثناء على الله بما أولاه من النعم. وأركانه ثلاثة:

أحدها: الاعتراف بنعمة الله على العبد.

الثاني: الثناء عليه بها.

الثالث: الاستعانة بها على مرضاته.

وأدلة الشكر كثيرة، وهو والصبر مطيتان للإيمان يُحمل عليهما ويُتحقق بهما، ويُنال بسببهما أعلى الدرجات وأكمل المنازل؛ ولهذا أخبر الله في كتابه أن الجزاء على الشكر لا نهاية له، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم: ٧].

وكذا الجزاء على الصبر، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠].

ومن نفيس كلام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما قاله في "عدة الصابرين" ص (٢٩٤): «فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأمورًا به فأداؤه هو الشكر. فإن قيل: فهذا يُفهم منه اتحاد الصبر والشكر وأنهما اسمان لمسمى واحد، وهذا محال عقلاً ولغةً وعرفًا، وقد فرَّق الله سبحانه بينهما، قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بينا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما فى وجود ماهيته إلى الآخر».

قلت: ينبغي أن يُعلم أن النفس لها قوتان:

الأولى: قوة الصبر، وهي الكف وإمساك النفس عما لا تحمد عليه.

الثانية: قوة البذل، وهي فعل الخير وهذا هو الشكر.

فباجتماع هاتين القوتين يحصل كمال العبد بهما: فالقيام بعبودية الله صبرًا وشكرًا يتحقق في العبد الكمال البشري.

وسيأتي مزيد لهذه المسألة في فصل الفروق، إن شاء الله تعالى.

٦) **الإكثار من التسبيح**: قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[الطور: ٤٨]، وغير ذلك من الآيات.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله...وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء**». أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" رقم (٥٤٨)، واللفظ له، وأحمد في "المسند" (١٧٠/٣)، وابن أبي الدنيا في "التواضع"رقم (٣٠)، والحاكم (٤٩/١)، وهو صحيح.

٧) **العمل بالحق حيث كان:** قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ٣]. قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين" ص (٢٠٩): «الدين مبنى على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ٣]. ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر، لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه؛ فكان الصبر نصف الايمان».

٨) **تقوى الله:** قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٩٠]، وقال تعالى:﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾[آل عمران: ١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[آل عمران: ١٨٦]. **قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين"** ص (١٢٢): «فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه».

أركان الصبر

للصبر أركان وهي:

الركن الأول: الإخلاص: بحيث يكون ابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[الرعد: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[المدثر: ٧].

وسيأتي الكلام على هذا الصبر، عند الكلام على الصبر لله.

وخلاصة القول في هذا الركن: أن الصبر عبادة لله يجب أن يُتعبد الله به، كما يُتعبد سبحانه بالدعاء وغيره. وأصله: النية في القلب. ومعلوم أن عبادات

القلب أجلّ من عبادات الجوارح، بل الصبر أصل عبادات القلب. وكلما كان المؤمن أصح نية وأقوى عزمًا كان أقدر على الصبر العملي والقولي، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن يتصبر يصبره الله!**». أخرجه البخاري رقم (١٤٦٩)، ومسلم رقم (١٠٥٣)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرج ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٤٦)، وأبو نعيم في "الحلية" (١٣٦/٦) عن عبد الواحد بن زيد أنه قال: «من نوى الصبر على طاعة الله صبَّره الله عليها وقواه لها، ومن عزم على الصبر عن معاصي الله، أعانه الله على ذلك وعصمه عنها». والأثر صالح للاحتجاج به.

الركن الثاني: المتابعة لما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشرائع والأحكام، ولما كان عليه السلف.

لقد عُلِمَ بالمشاهدة لأحوال المؤمنين والاستقراء لما هم عليه: أنه لا يقوم لهم دينهم إلا بالاتباع الصادق والتمسك الحق، والإقبال التام على سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل أضاف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سنته سنة سنها الخلفاء الراشدون كما هو معلوم من حديث العرباض وغيره، بل دعا ربنا إلى اتباع المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[التوبة: ١٠٠].

وقد فقه أهمية هذا الاتباع للسلف أهل العلم؛ **قال ابن الجوزي في "صيد الخاطر"** ص (٣٦٨): «وأكبر أسباب المعاصي قلة علم هؤلاء بسيرة السلف، وما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! لا أنهم يجهلون الجملة، ولكنهم يتشاغلون بعلم الخلاف، ويقصدون التقدم بقشور المعرفة، وليس يعنيهم سماع حديث، ولا نظر في سير السلف».

فألله ألله في توطين النفس على اتباع سيد الأولين والآخرين في السراء والضراء ظاهرًا وباطنًا وسفرًا وحضرًا!!

شروط الصبر التام

للصبر شروط كثيرة، ومنها شرطان:

الأول: عدم شكوى الخالق إلى المخلوق:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن، ولم يشكني إلى عواده أطلقته من أساري، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، ثم يستأنف العمل**». أخرجه الحاكم (٣٤٩/١)، والبيهقي (٣٧٥/٣)، وهو حديث صحيح.

قلت: هناك فرق بين شكوى الخالق إلى المخلوق وشكوى المخلوق إلى الخالق، فالأول محرم.

وأما شكوى المخلوق حاله إلى الخالق فهذا من أعظم القربات في حق المتأدب مع الله، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٣ – ٨٤]. وسيأتي مزيد كلام في هذا في الفصل السادس إن شاء الله.

الثاني: أن يكون الصبر عند المفاجأة بالمصيبة وورود الأمر والنهي:

أما الصبر عند المفاجأة بالمصيبة فيدل عليه حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: «**اتقي الله واصبري!**». فقالت: وما تبالي بمصيبتي فلما ذهب، قيل لها: إنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه، فلم تجد على بابه بوابين، فقالت: يا

رسول الله لم أعرفك، فقال: «**إنما الصبر عند أول صدمة**»، أو قال: «**عند أول الصدمة**». أخرجه البخاري رقم (١٢٨٣)، ومسلم رقم (٩٢٦). وقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي يعلي رقم (٦٠٦٧)، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البزار كما في «كشف الأستار» رقم (٧٩٢)، وفيهما كلام.

ومن كلام السلف وأئمة الخلف في هذا المعنى:

قال أبو سلمة الحمصي[1] كان يقال: «الصبر عند الصدمة الأولى، وعند كل بلاء، وعند كل لقاء، من رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

أخرجه وكيع في "الزهد" رقم (٢٠٠)، وهو أثر حسن.

وعن **مجاهد**، قال: «كان يقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

أخرجه وكيع في "الزهد" رقم (١٩٦)، وهو صحيح.

والمراد بالصدمة الأولى: عند المفاجأة بذكر المصيبة.

وقال القاضي عياض في "إكمال المعلم" (٣٦٨/٣): «وأصل الصدم: الضرب في الشيء الصلب، ثم استعير ذلك للأمر المكروه يأتي فجأة وغِرَّة».

وقال العلامة ابن عثيمين في "شرح مسلم" (٤١٥/٣): «المراد بذلك الصبر التام، وهذا يرد كثيرًا: أن يأتي الحصر للكمال لا لوجود الأصل».

قلت: لا خلاف بين شراح الحديث أن الحصر للصبر الكامل، ومفهوم الحديث: أن أصحاب المصائب الصابرين على قسمين:

القسم الأول: من يحرز الصبر التام وهو الذي يصبر عندما يسمع بالمصيبة أو يفاجأ بمشاهدتها، فيبادر إلى الاسترجاع والدعاء.

---

(١) هو: سليمان بن سليم الكلبي، ثقة عابد، مات سنة (٢٤٧هـ). "التقريب".

القسم الثاني: الذي يصبر بعد المفاجأة بالمصيبة: فهذا صبره ناقص.

ولا يفهم من هذا أنه لا يصبر بعد الصدمة الأولى، بل يصبر حتى تذهب المصيبة، ولا ينبغي أن يجدد ما يجلب الحزن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٢٥/٣٠٨-٣٠٩): «وإذا كان الله تعالى قد أمر بالصبر والاحتساب عند حدثان العهد بالمصيبة، فكيف مع طول الزمان؟!».

وقال الشاعر:

وإذا تصبك مصيبة فاصبر لها ... عظمت بلية مبتلًى لا يصبر

وأما الصبر عند ورود الأوامر والنواهي فهذا أيضًا مهم جدًا وهو يعني قبول ذلك بدون تردد وتأخر قال الله تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥].

للصبر دعامتان لا بد منهما:

دعائم الصبر أكثر من اثنتين، ولكن اقتصرت على اثنتين لأهميتهما البالغة، وهما: العزيمة الصادقة والهمة العالية؛ لأنه بدونهما يبقى الصبر محطمًا وصاحبه متعثرًا، ولهذا قال الله في المنافقين: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[محمد: ٢١].

وقال في صنف منهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى

قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[التوبة:٧٥ – ٧٨].

فالمنافقون عزائمهم خائرة وهممهم ساقطة، والمؤمن القوي لا يرضى لنفسه إلا بمعالي الأمور من هذا، قال الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها**».

أخرجه الحاكم (٤٨/١) وأبو نعيم في "الحلية" (٢٥٥/٣)، عن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأخرجه ابن عساكر (٣٦٧/٣٨)، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأخرجه الطبراني في "الكبير" (١٣١/٣) عن الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو صحيح.

قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٩٦) وهو يتحدث عما يضاف إلى العلم والعمل اللذين رُكِّبَ منهما الصبر: « فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي، أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية... ومتى فعل ذلك حصل له الصبر، وهانت عليه مشاقه، وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة!».

قلت: العزم من معاني الصبر الداخل في قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ومن يتصبر يصبره الله**». أي: من عزم على الصبر صبره الله. والهمة العالية من شرف النفس وكرمها، فإذا اجتمعا في عبد مسلم بلغ بهما المراتب العليا من كل خير.

الحكمة تشد أزر الصبر:

الحكمة هي: الإصابة في الأقوال والأفعال علمًا وعملاً، فاستخدام الصابر لها مقويًا لصبره وموصلاً له إلى مراده. أمر في غاية الأهمية، ومدح الحكمة والحكماء أمر معلوم ليس هذا مقام بيان ذلك. وقد أرشدنا الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى استخدام الحكمة إلى جانب الصبر، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رجل: يا

رسول الله، إن لي جارًا يؤذيني؟! فقال: «**انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق!**» فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس عليه، فقالوا: ما شأنك؟! قال: لي جار يؤذيني! فذكرت للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق!**» فجعلوا يقولون: اللَّهُمَّ العنه! اللَّهُمَّ أخزه! فبلغه فأتاه فقال: ارجع إلى منزلك؛ فوالله لا أؤذيك!»[1].

أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" رقم (١٢٤)، وأبو داود رقم (٥١٥٣)، وأبو يعلى رقم (٦٦٣٠)، وابن حبان رقم (٥٢٠)، وهو صحيح.
وله شاهد من حديث أبي جحيفة عند البخاري في "الأدب المفرد" رقم (١٢٥)، والحاكم (١٨٣/٤)، والبيهقي في "شعب الإيمان" رقم (٩١٠٠)، بسند صحيح.

وأخرج ابن المبارك في "الزهد" رقم (١٤)، وابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٧١) عن الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ، أنه قال: «إذا شئت رأيت بصيرًا لا صبر له، فإذا رأيت بصيرا ذا صبر فهناك». وسنده صحيح.

---

(١) استدل بعض الثوريين الديمقراطيين بهذا الحديث على شرعية المظاهرات والاعتصامات. ولا دليل فيه؛ لأن المظاهرات والاعتصامات خروج على الحاكم المسلم بهذه الطرق الغربية، فإلى جانب أنهم ارتكبوا محرمًا كبيرًا وهو الخروج على الحاكم المسلم اعتمدوا في الخروج على ما يسير عليه الأعداء، ولما كان استدلالهم هذا بدافع الوصول إلى الملك فقط، أنكروا على من خرج عليهم بنفس الخروج الذي خرجوا به على من قبلهم.

قواعد الصبر

القاعدة الأول:

«**الآيات التي ورد فيها الأمر بالصبر شاملة لأنواع الصبر**» وسواء كان الصبر على القضاء الكوني القدري، أو الشرعي الديني.

القاعدة الثانية:

«**الآيات الآمرة بالصبر في القرآن لا يصح نسخ شيء منها**». كما سيأتي في فصل: الآيات الواردة في الصبر كلها محكمة.

القاعدة الثالثة:

«**لن تدرك أمة الإسلام ما تحب إلا بالصبر على ما تكره**» فلتوطن الأمة نفسها على الصبر المحمود ما أمكن، وإلا بقيت على اختلال أمورها وتفكك قواها، وتدهور أحوالها.

أخرج أحمد في "الزهد" رقم (١٠٣٨)، وابن أبي الدنيا في "الحلم" ص (٣٠) بإسناد حسن، عن أبي جعفر الخطمي[١] أن جده عميرًا أوصى بنيه فقال: «...ومن يصبر على ما يكره يدرك ما يحب».

---

(١) هو: عمير بن يزيد بن عمير بن حبيب الأنصاري، صدوق، وجده عمير بن حبيب صحابي، تنظر ترجمته في "الإصابة".

القاعدة الرابعة:

«**الصبر**: **تحمل الشدائد**» وسواء كانت الشدائد في الأوامر والنواهي أم في المصائب والمعائب، وسواء كانت شدائد عامة أم خاصة دينية أم دنيوي. وكلما عظمت هذه الشدائد كانت الحاجة إلى الصبر أعظم وأعظم!

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "فيض القدير"** (٢٨٨/٦): «والصبر: القوة على مقاومة الآلام والأهوال وغيرها، فهو شامل للصبر على كل شدة ومصيبة. فليتخذ عدة؛ فهو من أشرف العُدد، وليقرع به باب المهمات؛ فإنه مفتاح الفرج، ومن لج ولج ومن جد وجد، ولكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان: العقل، وجوهر العقل: الصبر. قال بعضهم: وجميع المراتب العلية والمراقي السنية الدينية والدنيوية إنما تنال بالصبر».

وقال المفسر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "تفسيره"** (٣٢/١٠): «فالصبر يجمع تحمل الشدائد والمصاعب».

القاعدة الخامسة:

«**الصبر منصور أبدًا**». قد أطلق الله مدح الصبر، فقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النساء: ٢].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "إعلام الموقعين"** (١٥٩/٢-١٦٠): «فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه؛ فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نُصر فبحسب ما معه من الحق؛ فإن الله لا ينصر إلا الحق. وإذا كانت الدولة لأهل

الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبدا؛ فإن كان صاحبه محقا كان منصورا له العاقبة، وإن كان مبطلا لم يكن له عاقبة».

قلت: قوله: «لم تكن له عاقبة» أي: حميدة، بل مشؤمة وهذه القاعدة إذا فهمت على وجهها زادت القوي قوة والمقدام في الخير إقدامًا والطامع في النجاح اطمئنانًا، والمستضعف بشارة؛ فما أعظمها من قاعدة!!

أقسام الصبر

للصبر أقسام متنوعه.

القسم الأول: الصبر المتعلق بالله: وهو على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الصبر بالله:

ومعناه: الاستعانة بالله واللجوء إليه فقرًا وحاجةً، والاعتراف التام بأن الله هو الذي يُصَبِّره فهو بالله لا بنفسه، وهذا القسم من الصبر داخل في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥].

فقد استنبط العلماء قاعدة من هذه الآية، وهي: كل عبادة دعى الله عباده إليها وجوبًا أم استحبابًا أم تركاً، فهو المعين لهم عليها بقدر ما يستعينون به، وكل معصية نهى الله عنها فالله المعين على تركها.

وهذا النوع من الصبر الأصل أنه واجب وجوبًا حتميًا.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النحل: ١٢٧].

فأخبر سبحانه أن الصبر الذي عليه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عنده عَزَّوَجَلَّ، فطلب الصبر من الله من جملة توحيده والإيمان به، وهو بتوحيد الربوبية ألصق، وهو أساس الأنواع الآتية.

النوع الثاني: الصبر لله:

وهذا النوع من الصبر الأصل أنه فرض فرضه الله، وكيف لا وهو حقه سبحانه على العباد؟! بل خالص حقه: **قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مدارج السالكين"** (١٥٧/٢): «الصبر لله وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض».

قلت: الأدلة على هذا الصبر كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾[الرعد: ٢٢]، وقوله: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾[المدثر: ٧].

قال مجاهد: «أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عَزَّوَجَلَّ». ذكره بهذا اللفظ ابن كثير في "تفسيره" (٤١٩/٧)، وهو عند الطبري في "تفسيره" (١٦/٢٤)، وسنده صحيح.

وصح عن إبراهيم النخعي نحوه، عند الطبري في "تفسيره" (١٦/٢٤-١٧).

وقال ابن عاشور في "تفسيره" (٣٠٠/٢٩):عند قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٧]-: «فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مبدا رسالته، وهي من جوامع القرآن، أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته».

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أرسلت ابنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه: إن ابنا لي قُبِض؛ فأتنا! فأرسل يُقرئ السلام، ويقول: «**إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى؛ فلتصبر، ولتحتسب!**». أخرجه البخاري رقم (١٢٨٤)، ومسلم رقم (٩٢٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض فصبر**

واحتسب، وقال: ما أُمِرَ به بثواب دون الجنة!». أخرجه النسائي رقم (١٨٧١)، وهو حديث حسن.

وهذا الصبر من توحيد الألوهية وهو من أعظم مقوماته، وهو أجلّ أنواع الصبر المتعلق بالله، وهو والذي قبله مجمع عليهما؛ لا أعلم في هذا خلافًا. فالقيام بهذين النوعين تحقيق لتوحيدي الربوبية والألوهية وتوابعهما؛ فيالله ما أعظم الحاجة وأشد الافتقار إليهما؛ أمدنا الله بعونه، وزادنا من فضله من ذلك!!

النوع الثالث: الصبر فيه:

هذا النوع من الصبر قال به بعضهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾[الحج: ٧٨].

ولا شك في أن المجاهدة فيه تقوم على ساق الصبر، وإلا فلا مجاهدة.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص(٩٠): «فالصابر في الله كالمجاهد في الله، والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله».

وقال أيضًا ص (٩١): «فإن الصبر فيه بمنزلة الجهاد فيه، وهو أشق من الجهاد له؛ فكل مجاهد في الله وصابر في الله مجاهد له وصابر له من غير عكس؛ فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة فيقع عليه اسم من فعل ذلك لله ولا يقع عليه اسم من فعل ذلك في الله لا على من انغمس في الجهاد والصبر ودخل الجنة».

وقال أيضًا ص (٨٨-٨٩) وهو يشرح معنى الصبر فيه: «وهذا يفهم منه معنيان: **أحدهما**: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله، وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره...

والثاني: أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره».

وقال ابن عاشور في "تفسيره" (٣٠/٥٣٣): «والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها؛ فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة؛ ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه، حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها».

قلت: الصبر في الله أوسع معنى ، وأخص مضمونًا من الصبر لله؛ بدليل الآيتين السابقتين، وإذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر.

النوع الرابع: الصبر مع الله:

وهذا القسم زاده بعضهم وجعله أعلى أنواع الصبر، وبعضهم جعله أشد أنواع الصبر، قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٨٧): «واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه، وهو ألا يروغ عنه روغان الثعالب ها هنا وها هنا. فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه، وعكوف القلب عليه».

قلت: ليس هذا النوع في مقام النوعين قبله، وهما: لله وفي الله، فضلاً عن أن يكون أفضل منهما، بل هو داخل فيهما وجزء منهما.

وقد جمع القشيري في "رسالته القشيرية" (١/٣٢٥) الأنواع السابقة فقال: «الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر في الله بلاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء».

القسم الثاني: الصبر باعتبار محله:

وهو على قسمين:

الأول: **صبر بدني**، وإن شئت قلت: صبر حسي:

وهذا الصبر على نوعين:

الأول: **اختياري**: كتعاطي الأعمال الشاقة اختيارًا وإرادة.

الثاني: **اضطراري**: كالصبر على ألم الجراح في سبيل الله.

وهذان النوعان لا يذم منهما إلا ما كان مخالفًا لشرع الله.

الثاني: **صبر نفساني**، وإن شئت قلت: معنوي:

وهو الصبر عن مشتهيات النفس ومقتضيات الهوى.

وهذا الصبر أيضًا على نوعين:

الأول: صبر تحت قدرة المكلف: وذلك ككف نفسه عن المحرمات، وكبحها عن الملهيات مع الرغبة في ذلك، أو توفر الوسائل، وانتفاء الموانع، كصبر الرجل من بني إسرائيل عن الزنى مع بنت عمه، وقد وقع منها موقع الرجل من زوجته، وكترك السفر إلى بلاد الكفار لمواقعة المحرمات مع القدرة على ذلك والرغبة النفسية فيه.

الثاني: صبر اضطراري: ليس عند المكلف القدرة على مواقعته، وذلك كترك العبد شرب الخمر، لعدم قدرته على تحصيلها، وهكذا ترك الزنا والفواحش بسبب عدم قدرته على مواقعتها، فصبره هذا اضطراري، فإن صحبه التعبد لله بذلك كان مأجورًا.

القسم الثالث: الصبر المتعلق بحال المكلفين:

وهذا القسم على ثلاثة أنواع:

الأول: الصبر على أداء الأوامر وإقامة الطاعات، وحسن المعاملات.

الثاني: الصبر عن المناهي، والمحرمات، حتى لا يقع فيها.

الثالث: الصبر على الأقدار النازلة بالمكلف.

فجماع الدين كله في هذه الأنواع الثلاثة، فعل المأمور ويشمل ما كان واجبًا أو مستحبًا، وترك المحظور ويشمل ما كان محرمًا أو مكروهًا، والصبر على المقدور، فالعبد لا ينفك عن هذه الثلاثة حتى يلقى الله أو يرفع عنه التكليف. بجنون وما كان في حكمه، والأدلة على هذه الأنواع الثلاثة كثيرة، ومنها:

قول الله تعالى إخبارًا عن لقمان أنه قال: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾[لقمان: ١٧].

وقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات**».

أخرجه البخاري رقم (٦٤٨٧)، ومسلم رقم (٢٨٢٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم رقم (٢٨٢٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه أحمد في "الزهد" رقم (١٢٦) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فحاجة كل مؤمن ومؤمنة إلى الصبر على المكاره ليدخل الجنة، وإلى الصبر عن الشهوات لينجو من النار، وإلى الصبر على المصائب حتى لا يقع في سخط على الله وعلى أقضيته وأقداره فيسخط عليه.

وأهل العلم مجمعون على أن الصبر في الأنواع الثلاثة المذكورة من عزائم الإسلام وموجبات الدين؛ عُلم هذا بالاستقراء.

قال العلامة ابن عثيمين في "التفسير" (١٥٦/١): «قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع، وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء ... »ثم ذكر هذه الأنواع الثلاثة.

ويضاف إلى الأنواع الثلاثة نوع رابع ألا وهو: الصبر على شكر الله على نعمه.

فاتضح من هذا أن الصبر المحمود مشتمل على عموم حال العبد الديني.

قاعدة: فيما يشق من الصبر وفيما لا يشق:

العبرة في الأشياء المصبور عليها هي: المشقة على النفس. فكل عمل شق على نفس العبد فأداه على وجهه، فهو فيه صابر، كامل الصبر، وكل عمل لا يشق على فاعله، فصبره دون ذلك. والأعمال الصالحة التي يعملها المسلم ولا يجد مشقة فيها، فهذا من عون الله له وإذاقته سبحانه حلاوة العمل حتى سهلت عليه فالجهاد في سبيل الله أشق الأعمال على النفوس؛ لما فيه من إجهاد النفس والمال بما يؤدي إلى التلف، ولكن من صار الجهاد في سبيل الله سهلاً عليه بحيث لا يجد راحة إلا فيه والتعب عنده أن يحال بينه وبين الجهاد، فهذا صار الجهاد في حقه عملاً ليس فيه مشقة عليه؛ لأن الله سهل له ذلك وألانه له، حتى صار لذيذًا.

القسم الرابع: الصبر الحاصل في الناس على قسمين: محمود ومذموم:

وإن شئت قلت: صبر الكرام وصبر اللئام، وسيأتي الكلام على النوعين المذكورين في الفوارق.

امتحان الله صبر العباد وقاعدة ذلك:

قد علم بالضرورة المشهودة والأحوال المعهودة والأدلة الشرعية: أن سنة الله في عباده أن يبتليهم بالشر والخير.

قال تعالى:﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: ١٥٥].

قال ابن عطية في "تفسيره" (٢/٣٢) عند آية البقرة: «قال الجمهور: إن الخطاب في هذه الآية لأمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ».

وأخرج الإمام أحمد في "الزهد" رقم (١٧٢) بإسناد حسن عن قتادة قال: «لقد ذكر لنا أن الرجل كان يعصب على بطنه الحجر؛ ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء، ما له دثار غيرها».

وقال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ٢١٤].

والقاعدة في هذا هي:

«كل ابتلاء من الله لعباده في ظواهرهم وسرائرهم في السراء والضراء امتحان لصبرهم».

وفي هذا الابتلاء من الحكم ما لا يحصى، ومن ذلك: ليظهر الصابر بصبره وهو شاق جدًّا، وليعرف الشاكر بشكره.

قال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" ص (١١٦): «ليس في التكليف أصعب من الصبر على القضاء، ولا فيه أفضل من الرضى به».

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين" ص (٣٣٦): «وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده يمتحن بها صبره وشكره».

قلت: ولما ابتلى الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فصبر واحتسب، أثنى الله عليه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص: ٤٤].

ففهم من هذه الآية وأمثالها أن الله يبتلي المؤمن ليجده صابرًا محتسبًا، وليظهر على حقيقته قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩].

ولا يخفى على اللبيب أن أكثر الناس عند هذا الامتحان تظهر كمائن نفوسهم المذمومة.

قال الحسن البصري: «صدق الله ورسوله: باليقين طُلبت الجنة، وباليقين هُرب من النار، وباليقين أُديت الفرائض، وباليقين صُبر على الحق، وفي معافاة الله خير كثير. قد والله رأيتهم يتفاوتون في العافية فإذا نزل البلاء تساووا». أخرجه أحمد في "الزهد" رقم (١٦٤٠)، وإسناده صحيح.

وقال شميط بن عجلان[1]: «العافية سترت البر والفاجر، فإذا جاءت البلايا استبان عندها الرجلان». "صفة الصفوة" (٣٤٦/٣).

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" ص (١٧٧) وهو يتحدث عن المنعمين: «فأما من تواصلت لديه النعم؟ فإنه يكون طيب القلب لتواصلها، فإذا مسته نفحة من البلاء، فبعيد ثباته...فالعاقل من أعد ذخرًا، وحصل زادًا، وازداد من العدد، للقاء حرب البلاء، ولا بد من لقاء البلاء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٩/٢٠): «وكمائن القلوب تظهر عند المحن».

وقال الراغب الأصفهاني: «الإنسان لا ينفك في الدنيا من شيء من المحن، بل في حال المسار يساق به إلى محنة، ولهذا قيل: كفى بالسلامة داء». نقلاً من "تفسير الطيبي" (١٦٦/٣)

فيا أيها المسلم الكريم: وطن نفسك على الصبر على الشدائد؛ لعلك تنجو وتسلم من التَّغَيرِ والتَغْيِيْر في الدين، كما أوضحت هذا في كتابي: "تمام المنة في فقه قتال الفتنة".

ولله در من قال:

اصبر ففي الصبر خير لوعلمت به ... لكنت باركت شكرًا صاحب النعم

واعلم بأنك إن لم تصطبر كرمًا ... صبرت قهرًا على ما خُط بالقلم

---

(١) شميط بن عجلان البصري، قال الذهبي في "تاريخ الإسلام" (٨٩٢/٣): العابد أحد زهاد البصرة...وله مواعظ نافعة، وقصص. وقال فيه أبو حاتم: لا بأس به، يكتب حديثه. "الجرح والتعديل" (٣٩١/٤).

أسباب تقوي عموم الصبر:

لقد جعل الله لكل شيء أسبابًا تقويه، وحاجتنا هنا إلى الأسباب التي تقوي صبرنا وتشد عزائمنا وتشحذ هممنا؛ لأننا قد علمنا علم اليقين أن الله لا يأمر بأمر إلا وقد تفضل الله على عباده بتسهيله لهم وأعانهم عليه، وذلك على حسب قربهم منه سبحانه وصلتهم به. ومن ذلك: أسباب تقوية عموم الصبر، وهي كثيرة، وجماعها **ما قاله ابن الجوزي في "صيد الخاطر"** ص (١١٧-١١٨): «ومما يقوي الصبر على الحالتين: النقل، والعقل -إلى أن قال-: وأما العقل، فإنه يقوي عساكر الصبر بجنود».

والأسباب المعينة هنا هي:

١) **معرفة هوى النفس: قال العلامة ابن الجوزي في "ذم الهوى"** ص (٥٢): «ولا يقدر على استعمال الصبر؛ إلا من عرف عيب الهوى وتلمح عقبى الصبر فحينئذ يهون عليه ما صبر عليه وعنه».

٢) **الدعاء بإعطاء الصبر:** خصوصًا في المواطن والأحوال التي تشتد الحاجة فيها إلى الصبر قال تعالى، مخبرًا عن الفئة القليلة التي غلبت فئة كثيرة بإذن الله: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٠].

وأخرج الحاكم في "المستدرك" (٥٢٢/١)، وابن حبان رقم (٩٢٢)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أتى جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**إن الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكلمات، فإني معطيك إحداهن، قال: اللَّهُمَّ إني أسألك تعجيل عافيتك، أو صبرا على بليتك، أو خروجا من الدنيا إلى رحمتك**».

والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان.

٣) **العلم بما في امتثال أوامر الله وترك نواهيه من مصالح ومنافع دينية ودنيوية وأخروية** عامة وخاصة عاجلاً وآجلاً ظاهرًا وباطنا: قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين" ص (٩٦): «فالصبر وإن كان شاقا كريها على النفوس، فتحصيله ممكن. وهو يتركب من مفردين: العلم والعمل، فمنهما تُركَّب جميع الأدوية التى تداوى بها القلوب والأبدان؛ فلا بد من جزء علمي وجزء عملي، فمنهما يركب هذا الدواء الذى هو أنفع الأدوية. فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العلمين ... حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه، وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة».

٤) **إجلال الله أن يعصيه عبده،** وهو الذي يطاع ولا يعصى ويشكر ولا يكفر ويذكر فلا ينسى فيربأ بنفسه عن أن يعصي الله الذي يراه ويسمعه ويعلمه ويقدر على فضحه وعلى عقوبته.

٥) **أن يشهد إحسان الله إليه ونعمه عليه،** فيما ابتلاه الله به، فإن الله أرحم به وأعلم بمصالحه وأحكم فيما قضى وقدر عليه، فهل يليق بعاقل أن يقابل هذا الإحسان بالإساءة؟! قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: -٦٠-٦١].

أيرضى العبد المسلم أن يكون شره صاعدًا إلى الله في الليل والنهار، وهو يعلم أن إحسان الله عليه في كل وقت وآن؟!

٦) **النظر إلى ما في مخالفة الصبر المحمود من ضعف في دينه،** وما في ذلك أيضًا من جرأة أو عناد أو كبر أو غفلة أو جحود، وغير ذلك من الأمراض المعدية التي لا تكاد تصح له عبادة وتقبل له طاعة بسببها.

٧) **النظر إلى المعاصي** وما فيها من قبائح وقاذورات تسقط مرتبة المسلم وتهتك الستر الذي بينه وبين الله، وتبقى عليه عارًا وشنارًا في الدنيا والآخرة؛ فيختار لنفسه الترفع عنها ولو تجرع شيئًا من مرارة الصبر.

٨) **أن يعلم أن وقوعه فيما يخالف شرع الله استسلام لشياطين الجن والإنس،** فيتسبب في تمكن هؤلاء الأعداء منه وهو أحوج إلى الانتصار عليهم والسلامة منهم.

وأقوى قوة له في الانتصار عليهم: الصبر الشرعي في تحقيق شرع الله.

٩) **لا يأمن من مكر الله به وغضبه عليه وانتقامه منه** إذا تعمد ارتكاب ما حرم الله أو ترك ما أوجب الله عليه، بسبب قلة الصبر؛ فالصبر أجلب للسلامة، وأبقى للسعادة، وأدوم للعافية.

١٠) **أن يعلم حسن معاملة الله له إذا تدرع بالصبر وتسلح به.**

قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (١٠٩): «ولا يستوحش من ظاهر الحال فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله كما ليس كمثله شيء في صفاته؛ فإنه ما حرمه إلا ليعطيه ولا أمرضه إلا ليشفيه ولا أفقره إلا ليغنيه ولا أماته إلا ليحييه وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال، كما قيل: يا آدم، لا تجزع من قولي لك: (واخرج منها)؛ فلك خلقتها وسأعيدك إليها.

فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه ويعطيه بحرمانه ويصحه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلاً، إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه».

١١) **أن يعلم ما في الصبر على إرضاء الله** ولو سخط المخلوق من حسن العاقبة.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس**». أخرجه الترمذي رقم (٢٤١٤)، وصححه الألباني.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه» أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" رقم (٩٢٦٧)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (٥٤٧)، وهو أثر حسن.

فهذه أحد عشر سببًا كل واحد منها كافٍ شافٍ في تقوية الصبر .

وزيادة على هذا: كلَّ ما ذكرناه فيما يناله الصابرون من الجزاء الأوفر مقوٍّ على الصبر وسائق إليه وداع إلى الظفر به.

فخلاصة هذه الأسباب أنها قوة السائرين إلى الله، لا غنى لهم عنها طرفة عين.

فمتى حققها المؤمن كان أقوى المؤمنين صبرًا وأعظمهم شكرًا، وأتمهم نورًا وأكثرهم أجرًا.

أحوج الناس إلى الصبر أصحاب الأعمال الجليلة:

أصحاب الأعمال الجليلة كالعلماء بالشريعة والدعاة إلى الله على بصيرة، والأغنياء، وولاة الأمور وقادة الجيوش والقضاة بين الناس والوزراء والمحافظين والمديرين وغيرهم، هم أفقر الناس إلى الصبر المحمود؛ إذْ لا قيام بمهامهم إلا بالصبر ولا نجاح لهم واستمرارية وكفاح إلا بالصبر.

قال العلامة ابن عاشور في "أصول النظام الاجتماعي" ص (١٢١): «ثم إن في الصبر فائدة أخرى قوية وهي: تربية قوة الإرادة في النفس، وتسمى هذه القوة بالهمة وبالعزيمة، وهي خلق تنشأ عليه النفس، ومن شأنه أن يدفعها إلى السعي

في تحصيل ما تتطلبه بدون كلل، فلا يزال هذا الخلق ينمى حتى تصير الأخطار لديه محقرة. وصاحب هذا الخلق مظهرٌ للأعمال العظيمة في كل غرض يعمد إليه من علم أو تأليف أو تدبير دولة أو قيادة جيش أو غير ذلك. وقد حملت الآداب الإسلامية المسلمين على التخلق به في سائر تعاليمها؛ فكانوا مظهرًا للنجاح أينما توجهوا».

وقال أيضًا ص (١٢٠-١٢١) بعد أن ذكر امتثال الأوامر واجتناب النواهي: «والصبر ملاك ذلك كله والتدرب عليه وهو وسيلة النجاح؛ لأن جلائل الأعمال كلها يعترضها ضعف المقدرة وتثبيط الكسل وإنكار الجهال ولوم اللوام، فلا تفل حدة ذلك كله إلا بالصبر».

قلت: فإذا استعمل من ذكرنا الصبر المذكور صار لأعمالهم لذة عجيبة عندهم.

قال العلامة ابن القيم في "طريق الهجرتين" (١/١٢٢): «وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله والصبر على أعداء الله سبحانه، فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكل من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم».

غاية الصبر المحمود:

غاية الصبر المحمود: الفوز والظفر بما وعد الله به الصابرين في الدنيا والآخرة.

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واعلم أن النصر مع الصبر**». أخرجه أحمد (١/٣٠٧)، والحاكم (٣/٥٤٢)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بإسناد حسن.

وعن وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: مكتوب في الحكمة: «قصر الغايات ثلاث: قصر السفه الغضب، وقصر الحلم الراحة، وقصر الصبر الظفر».

أخرجه ابن أبي الدنيا في "الحلم" رقم (٧٢) بإسناد حسن.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين" ص (٥): «فالنصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال، بلا عدة ولا عدد، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد».

وأنشد البغدادي:

غايـــة الصـــبر لذيـــذ طعمهـــا ... وبـــدئ الصـــبر منـــه كالصَّـــبِرِ

إن في الصـــــبر لفضـــــلا بَيِّنًـــــا ... فاحمـــل النفـــس عَلَيْـــهِ تصـــطبر

روضة العقلاء ص (٢٢٢).

وأنشد الكريزي:

صبرت ومن يصبر يجد غب صـبره ... ألذ وأحلى من جنى النحل في الفـم

ومن لا يطب نفسا وَيَسْتَبْقِ صاحبا ... ويغفر لأهـل الـود يضرـم ويصرـم

روضة العقلاء ص (٢٢٢).

وقال المتنبي:

لأستسهلن الصـعب أو أدرك المـنى ... فمـا انقـادت الآمـال إلا لصـابر

وأنشد علي بن الجهم:

وعاقبـــة الصـــبر الجميـــل جميلـــة ... وأحسن أخـلاق الرجـال التفضـل

وقال آخر:

الصـــبر مفتـــاح مـــا يُـــرجَّى ... وكل صـــــعب بـــــه يهـــــون

فاصـــبر وإن طالـــت الليـــالي فَرُبَّمـــا طـــاوَعَ الحُـــزُونُ
وربمـــا نيـــل باصـــطبار مـــا قيـــل: هيهـــات لا يكـــون

منتهى الصبر:

أخرج ابن أبي الدنيا في كتابه "الصبر والثواب عليه" رقم (١١٤) عن يونس ابن يزيد قال: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: «أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبلها». وسنده صحيح.

وأخرج ابن أبي الدنيا أيضًا رقم (١١٥) وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣٧٦/٤٩) عن عبد الأعلى بن الحجاج، عن أخيه قيس بن الحجاج[1] في قول الله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا﴾[المعارج: ٥] قال: «أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو؟». وسنده لا بأس به.

وأخرج البيهقي في "شعب الإيمان" (٣٧٢/١٢) عن علي بن عبد الحميد قال: «أصبر الناس من صبر على الحق». ومعناه صحيح.

قال الشنقيطي كما في "العذب النمير" ص (٤٧): «والصبر يتناول: الصبر على طاعة الله، وإن كنت كالقابض على الجمر، والصبر عن معصية الله وإن اشتعلت نار الشهوات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عند الصدمة الأولى، والصبر على الموت تحت ظلال السيوف».

قلت: منتهى الصبر له جهتان:

---

(١) هو: قيس بن الحجاج الحميري الكلاعي، كان من الصالحين، صدوقًا في الحديث، توفي سنة (١٢٩هـ). «التقريب».

الأولى: عند حدوث المصيبة وعند ورود الأوامر والنواهي، وهي: التسليم بدون تأخر ولا منازعة لا للشرع ولا للقدر. فلو حصل التسليم في بعض ما ذكرنا لم يكن صاحب الصبر قد وصل إلى منتهاه، حتى يحصل منه له ذلك كله.

الجهة الثانية: أن يستمر على الصبر في الأوامر والنواهي وعلى المصائب، حتى يلقى الله وهو على ذلك، وهذه الجهة الثانية هي صبر الأنبياء والمرسلين والصديقين، وهذا النوع حقا هو منتهى الصبر الذي لا صبر فوقه ولا أجلّ منه وأكمل، إلا ما خص الله به نفسه كما أخبر النبي ﷺ بقوله عن ربه: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنه يشرك به ويجعل له الولد ثم هو يرزقهم ويعافيهم!**». أخرجه البخاري رقم (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قلت: ويدخل في هذا الصبر الصبر عند الموت.

وبالاستمرار في الصبر المذكور يتحقق ما لا يتحقق بانقطاعه، قال الشاعر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

حكم الصبر:

قد دل الكتاب والسنة والإجماع، على وجوب الصبر.

فمن الكتاب: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

قال ابن الجوزي في "زاد المسير" (٥٣٤/١): «وفي الذي أمروا بمصابرته قولان: أحدهما: العدو. قاله ابن عباس والجمهور».

وقال به عز الدين الحنبلي في "رموز الكنوز" (٤٠٤/١)، والقرطبي في "أحكام القرآن" (٤٨٥/٥)، والشوكاني في "فتح القدير" (٦٦٩/١)، وصديق حسن في "البيان" (١٨٩/٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾[النحل: ١٢٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾[الطور: ٤٨].

وقد ورد ذكر الصبر في القرآن بصيغ أخرى تتضمن وجوبه وتحتمه.

والأمر بالصبر في القرآن الكريم تارة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهو الأكثر، فهو في عشرات الآيات، وتارة لعموم المسلمين والمؤمنين.

ومن السنة: أحاديث كثيرة تدل على الأمر بالصبر والحث عليه، ومنها: ما أخرجه البخاري رقم (٧١٥٤)، ومسلم رقم (٩٢٦) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال للمرأة التي وجدها تبكي على صبي لها: «**اتقي الله واصبري!**».

ومن حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا عند البخاري رقم (٦٢٨٥) ومسلم رقم (٢٤٥٠) أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال لفاطمة ابنته : «**اتقي الله واصبري!**».

وأخرج البخاري رقم (٣٧٩٢)، ومسلم رقم (١٨٤٥) عن أسيد بن حضير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال لرجل من الأنصار: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**».

ومن حديث ابن أبي أوفى أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا!**». أخرجه البخاري رقم (٣٠٢٥)، ومسلم رقم (١٧٤٢)، وغير ذلك من الأحاديث.

وأما الإجماع: فقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٣٩/١٠): «ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك

المحظورات. ويدخل في ذلك: الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه».

وقال في كتابه "الفرقان" ص (٢٦٥): «والصبر واجب باتفاق العلماء»، وذكره في "التحفة العراقية" ص (٤٥).

وقال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (١٥٠/٢): «قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا، وهو واجب بإجماع الأمة».

وقال في "عدة الصابرين" ص (١٢٠): «والصبر متفق على وجوبه».

قلت: هذا الإجماع متحقق في الجملة.

وبهذه النقولات عرفنا حكم الصبر في الشرع المطهر، وأن الله فرضه على أعيان المكلفين، فرضًا حتميًا في الأصل، وهذا الفرض أخذ بزمام أدلة أخرى إلى جانب ما سبق، ومنها: الفطرة والعقل؛ لما يُرى من مسيس الحاجة إليه وحسن عاقبته ومنها: الضرورة البشرية، حيث إن البشر أدركوا أن حياتهم لا تقوم قائمتها ولا يرتفع بنيانها ولا يثبت أساسها إلا على الصبر؛ جعلنا الله من الصابرين!

ومما ينبغي: أن يُعلم أن من الصبر ما هو مستحب لا واجب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في"مجموع الفتاوى" (١١٥/١٥): وهو يتحدث عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعًا من السجن، لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس».

وقال ابن الفرس في "أحكام القرآن" (٤٦٩/٣) -في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣]-: «والصبر والغفران أفضل إجماعًا».

ومن الصبر ما هو مباح، ومنه ما هو مكروه، انظر هذه التقاسيم في "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" ص (٥٤).

وأما الصبر المحرم فسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في «فصل الفروق».

الفصل الثاني: آيات الصبر محكمة غير منسوخة

آيات الصبر كثيرة كما سبق بيان هذا في المنازل، وكثير منها تنص على الأمر بالصبر على الكفار، فاختلف المفسرون في هذه الأوامر هل نسخت بعد فرض قتال الكفار أم لا؟ وقد عقدت هذا الفصل لبيان ما هو الحق في ذلك.

الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾[النحل: ١٢٧].

قال ابن الفرس في "أحكام القرآن" (٣/٢٥٤): «هل هو منسوخ أو محكم؟ الجمهور على أنها محكمة».

وقال القرطبي في "تفسيره" (١٠/٢٠٢): . «جمهور الناس على أنها محكمة، أي: اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا في المثلة. ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾[النحل: ١٢٧]، أي: على قتلى أحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله».

وقال الإمام الشوكاني في "تفسيره" (٣/٢٨٢): «وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة؛ لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم . وقيل: هي منسوخة بآيات القتال ، ولا وجه لذلك».

وقاله صديق حسن خان في "تفسيره" (٢/١٩٠).

قلت: قول الجمهور بأن الآية محكمة هو الحق، لأمور:

الأول: أن الآية مدنية لا مكية، والآيات المدنية النسخ فيها أقل من الآيات المكية، فيتحرى في ذلك.

قال القرطبي في "تفسيره" (١٠/٢٠١) : «أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يوم أحد...».

الثاني: أن الآية واردة في الترغيب في الصبر على المعتدين، والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة، ولا نسخ فيما كان في باب الإخبار؛ لأن النسخ في الأوامر والنواهي فقط .

الثالث: أن الآية واردة في حقٍّ الغالب فيه أن يكون للمخلوق، فإن شاء عفا وإن شاء أخذ حقه بقدر مظلمته، ولا نسخ في هذا ألبتة؛ لأن النسخ في الأوامر والنواهي الواردة في حقوق الله، لا فيما هو من خالص حق البشر.

الرابع: أن قضايا الاعتداء بين الناس لا تكاد تنتهي، فهي تتطلب جميع أنواع الحلول والمخارج النافعة، والصبر منها، فلا نسخ.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٦].

قال العلامة ابن الجوزي في "نواسخ القرآن" ص (١١٠): «الجمهور على إحكام هذه الآية؛ لأنها تضمنت الأمر بالصبر والتقوى، ولا بد للمؤمن من ذلك».

وقول الجمهور هو الأقوى، بل لا يصلح إلا هو؛ لأن مؤاذاة الأعداء على مر الدهور وأغلب العصور حاصله، فالحاجة إلى الصبر عليهم ماسة، خصوصًا المستضعفين، كما هو الحال في القرون المتأخرة.

وأيضًا: اقتران الصبر في الآية بالتقوى، دليل على عدم النسخ، فكما أنه لا نسخ في الأمر بالتقوى، فكذلك لا نسخ في الأمر بالصبر؛ لأن الصبر محافظة على تحقيق التقوى.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية في"الاستقامة" (٣٨/١). كلام جيد عند هذه الآية قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى...

وقد قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾[المائدة ٨]. فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟! فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالمًا له؟! فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا».

فائدة: قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٤٨٣/٢): «فكل من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤذى؛ فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله، عَزَّوَجَلَّ».

فائدة أخرى: قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٣٠٣/٢): «فالتقوى تتناول فعل المأمور وترك المحذور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور».

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[المعارج: ٥].

قال ابن الجوزي في "نواسخ القرآن" ص (٢٤٥): «قال المفسرون صبرًا لا جزع فيه. وزعم قوم منهم ابن زيد أن هذا كان قبل الأمر بالقتال، ثم نسخ بالسيف».

قلت: جمهور المفسرين على عدم النسخ وهو الصواب، كما أوضحت هذا جليًا في الآية الأولى. وأما قول المفسرين بأن الصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه فهو كذلك، وقد صح هذا عن مجاهد بن جبر وغيره.

وروى البخاري رقم (٢٦٦١)، ومسلم رقم (٢٧٧٠)، عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، في قصة الإفك وفيه قولها: والله ما أجد لي ولكم مثلا، إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف: ١٨]!

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٦٦٦/١٠): «صبر بلا شكوى، قال يعقوب ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[يوسف: ٨٦]. مع قوله: ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف: ١٨]، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل».

قلت: الصبر الجميل يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: التسليم لله عند الصدمة الأولى، وما بعدها.

الثاني: عدم الجزع.

الثالث: عدم الشكوى إلى المخلوق.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣].

قال العلامة ابن الفرس في "أحكام القرآن" (٤٦٩/٣)بعد أن ذكر القول بنسخها: «من رأى هذه الآية إنما هي بين المؤمنين قال: هي محكم. والصبر والغفران أفضل إجماعًا».

وقال ابن الجوزي في "نواسخ القرآن" ص (٢٢١) بعد أن ذكر القول الأول بنسخها.

«**الثاني**: أنها محكمة؛ لأن الصبر والغفران فضيلة والانتصار مباح. فعلى هذا: تكون محكمة وهو الصحيح».

قلت: ما رجحه ابن الجوزي وابن الفرس وغيرهما هو كذلك.، ولهذه الآية معنىً عظيمًا، فقد أخرج ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٢٠): عن الحسن قال: «سب رجل رجلا من الصدر الأول، فقام الرجل وهو يمسح العرق عن وجهه، وهو يتلو: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣]. قال الحسن: «عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون». والأثر حسن.

وقال الزجاج في "معاني القرآن" (٤٠٢/٤) عند الآية: «أي: الصابر يؤتى بصبره ثوابًا، فكل من زادت رغبته في الثواب فهو أتم عزمًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الجواب الصحيح" (١١٢/٥-١١٣) بعد ذكره لهذه الآية وما قبلها: «فهذا أحسن شرع وأحكمه يرغب في الصبر والغفر والعفو والإصلاح بغاية الترغيب، ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة».

الآية الخامسة: قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾[المزمل: ١٠].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾[البقرة: ١٠٩]، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بقتل؛ فقتل الله به من قتل من صناديدقريش».

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٢٠٦/١)، وهو حديث صحيح.

وقال ابن الجوزي في "نواسخ القرآن" ص (٢٤٨): «قال المفسرون: ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ على ما يقولون من تكذيبهم إياك، وأذاهم لك، ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ لا جزع فيه. وهذه منسوخة عندهم بآية السيف، وهو مذهب قتادة وعلى ما بيناه من تفسيرها يمكن أن تكون محكمة».

قلت: أثر قتادة المذكور أخرجه الطبري في "تفسيره" (٦٨٩/٢٣) وهو أثر حسن، وقول المفسرين هنا هو في تفسير الهجر الجميل، لا في القول بالنسخ، ولا خلاف بين المفسرين أن الهجر الجميل هو المذكور، وكان قبل قتالهم، أما بعد

فرض قتالهم فقد صار القتال حاصلاً، ولكن لا يعني هذا النسخ، وإنما المراد أن يُعلم أن للمسلمين مع الكفار حالتين:

الأولى: حالة الصبر عليهم، وهذا حالة الاستضعاف.

الثانية: حالة القوة؛ فيقاتلونهم.

الآية السادسة: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[يونس: ١٠٩].

قال المفسر عز الدين الحنبلي في "تفسيره" (١١٢/٣): «والأمر بالصبر منسوخ بآية القتال، عند ابن عباس وأكثر المفسرين».

وقال في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾[الطور: ٤٨] (٤٥٨/٧)-: «وهذا من المواضع التي يقول أكثر المفسرين: إنها منسوخة. ولا يصح لما ذكرنا في نظائره».

قلت: قول عز الدين قول سديد، وهو قول حاسم في النسخ المدعى.

الآية السابعة: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥].

قال أبو جعفر النحاس في "ناسخ القرآن ومنسوخه" (١١٠/٣): «ومن أحسن ما قيل في هذه الآية ما قاله ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: أمر الله عز وجل المؤمنين بالصبر عند الجزع، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم».

قلت: قول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أخرجه الطبري في "تفسيره" (٤٧١/٢١) بسند صالح للتحسين.

وقال ابن الجوزي في "نواسخ القرآن" ص (٢١٧): «قال أكثر المفسرين: هو كدفع الغضب بالصبر والإساءة بالعفو. وهذا يدل على أنه ليس المراد بذلك معاملة الكفار؛ فلا يتوجه النسخ».

الآية الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[الأنفال: ٦٥].

قال ابن الجوزي في "نواسخ القرآن" ص (١٦٨): «قال المفسرون: لفظ هذا الكلام لفظ الخبر ومعناه: الأمر، والمراد: يقاتلون مائتين وكان هذا فرضًا في أول الأمر، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾[الأنفال: ٦٦].

وقال العلامة ابن الفرس : «ذهب الجمهور إلى أنه منسوخ بقوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾[الأنفال: ٦٦]».

ونسبه إلى الجمهور المفسر ابن عادل في "تفسيره" (٥٦٦/٩).

قلت: وعارض الجمهور غيرهم وقالوا: هذا التخفيف لا يسمى نسخًا؛ لأن النسخ رفع الحكم ولم يستقر الحكم في مصابرة العشرة.

قال أبو جعفر النحاس في "الناسخ والمنسوخ" (٣٨٨/٢): «وهذا شرح بين حسن أن يكون ذا تخفيفا لا نسخًا». وقال به ابن حزم وغيره من المحققين.

قلت: ويقوي القول بعدم النسخ قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩]، وغير ذلك من الأدلة.

والناظر إلى المعارك التي حصلت بين المسلمين والكفار يجد في أغلبها أن الكفار أضعاف المسلمين أضعافًا كثيرة، وتحصل الغلبة للمسلمين بإذن الله.

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾[ق: ٣٩].

قال ابن الجوزي في "نواسخ القرآن" ص (١٩٥): «قال جماعة من المفسرين: معناها: فاصبر على ما تسمع من أذاهم، ثم نسخت بآية السيف».

وقال عز الدين الحنبلي في "تفسيره" (٥٨٢/٤): عند قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ ﴾[طه: ١٣٠] «قال المفسرون: أمر الله نبيه أن يصبر على أذاهم ثم نسخ إطلاق الصبر بآية السيف».

وقال- عند الآية التي في سوة (ق)- (٣٩٨/٧): «قال المفسرون: هذا كان قبل الأمر بالقتال، وقيل: الصبر مأمور به على كل حال؛ فلا نسخ».

قلت: اختلف المفسرون على قولين، والكلام فيها كالكلام في الآيات التي قبلها: أنه لا نسخ.

الآية العاشرة: قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ ﴾[الكهف: ٢٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٥٩/١١-٦٠): «هي عامة فيمن تناوله هذا الوصف؛ مثل الذين يصلون الفجر والعصر في جماعة فإنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، سواء كانوا من أهل الصفة أو غيرهم، أمر الله نبيه بالصبر مع عباده الصالحين؛ الذين يريدون وجهه».

قلت: وختام هذا الفصل يتوج بقاعدة تضم جميع الآيات الواردة في الصبر واللين والعفو والصفح والمجادلة للكفار بالتي هي أحسن، وتطرق المفسرون إلى القول فيها بالنسخ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الجواب الصحيح" (٢١٨/١): «فإن من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف؛ لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة، وهذا غلط؛ فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضا للحكم المنسوخ».

قلت: قوله: «فإن النسخ ...» هذه هي القاعدة. وعليها: فلا نسخ أصلاً لما سبق من آيات الصبر؛ لعدم وجود المناقضة، بل الحاجة ماسة إلى الصبر على الكفار عند عدم القدرة على قتالهم خصوصًا في العصور المتأخرة التي حصل فيها استضعاف المسلمين بغزو ديارهم تارة وبتسليط عملائهم عليهم تارة أخرى، فظهرت الحاجة إلى الصبر عليهم لا محالة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل الثالث: صبر المرسلين والنبيين

صبر الأنبياء والمرسلين هو أجلّ وأكمل صبر الخلق.

والأدلة على أن صبر الأنبياء كما قلنا: قول ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى مخبرًا عن قول الرسل: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ ﴾[إبراهيم: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الأنعام: ٣٤].

وبهذا المعنى قوله تعالى:﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[هود: ١٢٠].

قلت: ومن أنباء الرسل العظيمة صبرهم العظيم على أقوامهم، وقد نصت السنة على أن صبر الأنبياء هو أعظم الصبر.

فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة!**».

أخرجه الترمذي رقم (٢٣٩٨)، وأحمد (١/١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) وابن ماجه رقم (٤٠٢٣)، والدارمي (٢/٣٢٠) وابن حبان رقم (٦٩٨و٦٩٩)، والحاكم (١/٤٠-٤١)، وهو حديث صحيح.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه دخل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو موعوك، عليه قطيفة، فوضع يده عليه، فوجد حرارتها فوق القطيفة، فقال أبو

سعيد: ما أشد حماك، يا رسول الله! قال: «**إنا كذلك، يشتد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر!**»، فقال: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الصالحون، وقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها فيلبسها، ويبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء!**» .أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" رقم (٥١٠)، والحاكم (٩٩/١)، والبيهقي (٣٧٢/٣)، وهو صحيح.

وأخرجه أحمد (٣٦٩/٦) والحاكم (٤٠٤/٤) والنسائي في "الكبرى" رقم (٧٤٨٢) من حديث فاطمة بنت اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

وأخرجه ابن أبي الدنيا في "الكفارات" رقم (٩)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخرجه ابن أبي الدنيا أيضا في "الكفارات" رقم (٥)، عن بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وحديث سعد وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأمثالهما أصل في تضعيف البلاء على الأنبياء والصالحين وهو أصل في كمال صبرهم فإن اشتداد البلاء مع الصبر على ذلك دليل على كمال صبرهم.

صبر أولي العزم من الرسل:

في هذا التفصيل المختصر في صبر الأنبياء والرسل أبدأ بذكر صبر أولي العزم من الرسل؛ لأن صبرهم أجل وأكمل وأتم من صبر غيرهم؛ لأنه في محض الدعوة إلى توحيد الله وخالص عبادته وكامل حقه وحقوق عباده، وأيضًا هو ناتج عن اختيار تام من قبلهم فلم يكن فيه شائبة الاضطرار.

قال الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ **فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾[الأحقاف: ٣٥].

وأولو العزم هم المذكورون في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾[الشورى: ١٣].

قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٨٧/٥): «ولا خلاف أن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور».

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا "**إجماعات المفسرين**"، أن الذي عليه جمهور المفسرين أن الخمسة المذكورين في الآيتين هم أولوا العزم، وسأذكر لكل واحد من هؤلاء الرسل نبذة من صبره.

صبر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

هذا النبي الكريم والرسول العظيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ظل يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ألف سنة إلا خمسين عاما، فلا نعلم على الإطلاق أحدًا عُمِّرَ في الدعوة إلى الله ما عمر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ!! وقد أخبر نوح عن نفسه كيف دعا قومه، قال الله عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾[نوح: ٥ – ١٠].

فهذه دعوة هذا النبي الكريم، تمر السنون وتمضي القرون وتتوالى الأجيال، يذهب الآباء والأجداد ويعقبهم الأبناء والأحفاد وهو يدعو قومه، إلى الله بدعوة محفوفة بالصبر ممتلئة بالرحمة مجللة بالحكمة، ومع هذا كله لم يستجب

لدعوته إلا نفر يسير، فلما رأى نوح أن الشقوة قد غلبت قومه، والضلالة قد استحكمت عليهم وتعاقبوا على الكفر، دعا عليهم فقال كما أخبر الله: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[نوح: ٢٦ – ٢٧].

فعلى ما سبق ذكره فنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أطول الأنبياء والرسل صبرًا؛ فقد دام صبره فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا! فانظر ما أوسع هذا الصبر لمن أكرمه الله!!

فماذا يقع صبر من صبر مائة سنة بجانب صبر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟! ألف سنة إلا خمسين عامًا، مع أن صبر مائة سنة صبر عظيم!

ألا يُحدِّث علماء الإسلام وحملة سنة سيد الأنام أنفسهم بأن يصبروا في مجال الدعوة إلى الله، حتى يلاقوا ربهم طالت المدة أم قصرت؟! مع أن أطولها قصير بجانب صبر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

اللَّهُمَّ أفرغ علينا صبرًا في سبيل دينك، وإحياء سنة نبيك، وإصلاح أنفسنا وإصلاح عبادك!

صبر إبراهيم خليل الرحمن في الدعوة إلى الله:

أوضح لنا القرآن صبر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن ذلك صبره في دعوة أبيه آزر إلى دين الله الذي بُعث به عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ

وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[مريم: ٤١ – ٤٧].

واستمر إبراهيم في دعوة قومه إلى توحيد الله، فلم يستجيبوا له؛ فقام بتكسير أصنامهم فاحتشد الناس عليه حتى كانوا عليه لبدا، وهو صابر ثابت، ولم تقف المؤاذاة لإبراهيم عند هذا، بل قرر كبار قومه على أن يلقوه في النار، قال الله تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ٦٨]. فصبر على هذا حتى ألقي به في النار فحفظه الله من حرها وجعلها عليه بردًا وسلاماً، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[الأنبياء: ٦٩ – ٧٠].

وبعد أن نجاه الله من النار هاجر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من العراق إلى الشام؛ من أجل الدعوة إلى الله، ورحل من الشام إلى مكة لبناء البيت الحرام، فبناه هو وإسماعيل، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٧ – ١٢٨].

فانظر إلى هذا الصبر المترامي الأطراف، أهل لإبراهيم بالشام، وأهل له بمكة، ليقيم بهم دين الله وهو بين ذلك كما أخبر الله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[إبراهيم: ٣٧].

وهاهو القرآن يطلعنا على صبر آخر لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أجلَّ مما سبق، فقد أمر الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، قال تعالى مخبرًا عن إبراهيم وإسماعيل:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الصافات: ١٠٠ – ١١٠].

فانظر إلى ابتلاء الله لإبراهيم بذبح ولده إسماعيل، فقام بذلك، فلو لم يكن لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الصبر إلا تنفيذه لأمر الله بذبح ولده إسماعيل، لكان كافيًا في التدليل على صبره العظيم واستجابته التامة، وصدقه الكامل مع رب العالمين قولاً وفعلا، وحجة في وفائه لدعوته وتفانيه في نصرتها!!

ألا يجدد أهل الاتباع عهدهم مع الله في مجال الصبر والاحتساب في سبيل نصرة دينه، وإحياء شريعته وهدي رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

صبر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

قال رسولنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يرحم الله موسى! لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**». أخرجه البخاري رقم (٣١٥٠) ومسلم رقم (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فصبر موسى الكليم يظهر جليًا في دعوته فرعون وأخذه في ذلك مدة من الزمان، وكان في هذه الدعوة: اللين والرفق بفرعون وقومه، وكان من فرعون: شدة الإباء وأعظم الاستكبار، وأكبر العناد والجحود وأقوى التهديدات، وأنكى التسفيه وأبشع السخرية، ومع هذا كله استمر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في دعوته فرعون صابرًا عليه حتى أخذ الله فرعون وقومه، ثم واصل موسى دعوته في قومه بني إسرائيل، فكان منهم معاملات سيئة وتصرفات حمقاوية، لما خرج

بهم من البحر ناجين منصورين قد قرت أعينهم بإهلاك الله لعدوهم الأكبر فرعون وقومه، قالوا لموسى كما أخبر الله عنهم: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فقال لهم موسى: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

ولما أمرهم موسى بأمر الله أن يذبحوا بقرة تعنتوا أيما تعنت، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[البقرة: ٦٧ – ٧١].

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صابرٌ عليهم صبرًا جميلاً.

ولما أمرهم موسى بأمر الله بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وأن لا يرتدوا على أعقابهم لم يستجيبوا، بل قالوا كما أخبرنا الله عنهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[المائدة: ٢٤].

ولما ذهب موسى لميقات ربه وغاب عنهم أربعين يومًا عبدوا العجل، وقالوا كما أخبر الله عنهم بذلك: ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾[طه: ٨٨].

وأكرمهم الله بإنزال المن والسلوى عليهم طعامًا لذيذا طيبًا، بدون معاناة أو مشقة، اعترضوا على ذلك ونفروا عن ذلك الطعام وقالوا كما أخبر الله عنهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[البقرة: ٦١].

وكم وكم من مخازي هؤلاء القوم التي تضيق منها صدور الكرام، وينفد عندها صبر ذوي الأحلام، ومع هذا بقي موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صابرًا عليهم.

صبر عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

وأما صبر عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فأعظمه على اليهود الأمة المتاجرة في تحريف كلام الله وتبديله والعريقة في الغدر والمكر، والماهرة في إشعال الفتن، قال الله تعالى فيهم: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤].

وهذه الأمة مستفحل أمرها في الطعن في الأنبياء والمرسلين، بل وقتلهم، ومشهورة بتعاطي السحر والتنجيم وأساليب الدجل والاحتيال فهؤلاء القوم لما دعاهم عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكان بهم رحيما ومعهم شهمًا كريمًا، وعظهم أبلغ الوعظ وأراهم الله معجزاته التي أيد بها رسوله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وضرب لهم عيسى أروع الأمثال وتعامل معهم بأحسن الأقوال والأفعال، ومع هذا كله قالوا في أمه مريم عليها السلام البهتان العظيم والإثم المبين وتمالئوا على قتله فرفعه الله

إليه فادعوا أنهم قتلوه وصلبوه، فكذبهم الله في هذا فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾[النساء: ١٥٧].

إلى غير ذلك من صور صبر هذا الرسول الكريم.

صبر نبينا محمد سيد الأولين والآخرين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الرسل الأربعة المذكورون آنفًا هم القدوة الكبرى في الصبر وغيره لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف لا وقد أمره ربه بالاقتداء بهم في الصبر فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ ﴾[الأحقاف: ٣٥].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (٦٣): «والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر؛ ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء، حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

قلت: أجلّ هذه النخبة المصطفاة من المرسلين صبرًا هو خاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال: «**لقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحدٌ ولقد أُخفت في الله وما يُخاف أحدٌ!**». أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١)، وأحمد (١٢٠/٣، ٢٨٦)، وابن حبان رقم (٦٥٦٠)، والبغوي في "شرح السنة" (٢٧٦/١٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو صحيح.

فلنأتِ إلى بيان مجمل صبر إمام المتقين وسيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إنه مما لا شك فيه أن صبر رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم مِن صبر مَن سبق ذكرهم من أولي العزم ومن دونهم من الرسل من باب أولى؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى الناس أجمعين، بل إلى الثقلين الجن والإنس، وإنما كان من كان قبله من المرسلين يبعثون إلى أقوامهم خاصة فعموم بعثته تستدعي المزيد من الصبر ولا بد. فلقد كان صبره العظيم في مكة على قريش، فلما هاجر إلى المدينة صار صبره أيضًا على اليهود، إلى جانب أنه ظهر في المدينة المنافقون والصبر عليهم أعظم من الصبر على الكفار الظاهر كفرهم؛ لخفاء كفر المنافقين، وأيضًا صبره على القيام بالجهاد في سبيل الله خير قيام وأعظم قيام؛ ففي وقت قصير كاد أن يفتح الجزيرة العربية كلها، مع أن إخوانه أولي العزم من الرسل لم يفرض عليهم الجهاد إلا موسى، فقد فرض عليه ولم يقم بذلك قومه في عهده؛ فبقي معطلًا.

أضف إلى ما سبق: تحزيب الأحزاب على رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أحد وبعد ذلك تحرك الأعراب ضد دعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خصوصًا من كانوا شديدي العداوة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد هذا كله جاء دور الصبر من أجل غزو فارس والروم، وما غزوة تبوك إلا دليل على صبر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد تحقق ذلك، ولا تغفل عن صبره على التأليف بين المهاجرين والأنصار، فهذا صبر مليء بالحكمة.

ولا تنسَ صبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه وآل بيته وأزواجه في عموم التربية لهم التي لم يسبق لها نظير؛ فأخرج جيلاً لم تعرف الدنيا جيلاً سبقه مثله، في الصلاح والنصرة للإسلام والغيرة على الدين وحسن الاتباع له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلولا صبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تربية هؤلاء، ما وصلوا إلى ما ذكرنا.

وإلى جانب ما سبق من واسع صبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثرة عفوه وصفحه عن أعدائه، حتى قال العلماء: حقوق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مماته أكمل منها في

حياته؛ لأنه كان في حياته يصبر ويعفو ويصفح، بل إنه ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ إني أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه، فإنما أنا بشر، فأي المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة!**». أخرجه البخاري رقم(٦٣٦١)، ومسلم رقم(٢٦٠١) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد جاء هذا الحديث عن أنس رضي الله عنه عند مسلم رقم (٢٦٠٣)، وعند أحمد (١٤١/٣)، وعن جابر رضي الله عنه عند مسلم رقم (٢٦٠٢)، وعن عائشة رضي الله عنها عند مسلم رقم (٢٦٠٠)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند أحمد (٤٤٩/٢)، وأبي يعلى رقم (١٢٦٢)، وعن سلمان رضي الله عنه عند أحمد (٤٣٧/٥)، وأبي داود رقم (٤٦٥٩)، وعن سودة زوجة أبي الطفيل رضي الله عنهما عند أحمد (٤٥٤/٥)، والطبراني في "الأوسط" رقم (٢٣٠٩)، وقد تكلمت عن فقه هذا الحديث في كتابي "الإبانة عن كيفية التعامل مع الخلاف بين أهل السنة والجماعة" ص (١٢٩-١٣١).

وبهذا الصبر العظيم نال نبينا ﷺ عند ربنا أعلى المقامات، وتبوأ أجلَّ المنازل.

قال العلامة ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (٣٠٦/٢-٣٠٧): «فإذا جئت الى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن وإقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله! فلم يؤذ نبي ما أوذي ولم يحتمل في الله ما احتمله ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده

جاهًا وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفًا وفضلاً، وساقه بها إلى أعلى المقامات».

وبناءً على ما سبق ذكره فرسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدوة لنا قدوة عامة وخاصة، في الصبر في كل المجالات: في حال قوتنا وضعفنا، ومع العدو والصديق، والمحب والمبغض والقريب والبعيد، وفي السراء والضراء وغير ذلك.

فيجب على كل مسلم ومسلمة خصوصًا أهل السنة والجماعة أن يصبروا في أمورهم الدينية أولاً، والدنيوية ثانيًا العامة والخاصة، كما صبر نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يجوز لهم بحال أن يتركوا الاقتداء برسولهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصبر بأي اعتبار من الاعتبارات المخالفة لشرع الله والمجانبة لهدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فالله أسأل أن يفرغ علينا صبرًا عظيمًا وحلمًا كريمًا، ورشدًا مستديمًا! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

صبر الأنبياء والرسل من غير أولي العزم:

تقدم أن صبر الأنبياء والرسل عمومًا هو أجلّ صبر الخلق والعباد، وهو متفاوت فقد ذكرنا أتمه وأكمله قبل قليل، وهو صبر أولي العزم من الرسل، وأيضًا صبر بقية الرسل والأنبياء من جنس صبر أولي العزم؛ بدليل أن الله أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر الذي عليه الأنبياء والرسل عمومًا، ولم يستثنِ منهم إلا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾[القلم: ٤٨].

ولنضرب هنا بعض الأمثلة الدالة على كمال صبر الأنبياء والرسل من غير أولي العزم:

صبر إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

لقد ابتلي نبي الله ورسوله إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببلوى لم يبتل بها غيره من الأولين والآخرين، ألا وهي الأمر بذبحه:

قال الله تعالى مخبرًا عن صبر إسماعيل في تنفيذ ما دعاه إليه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[الصافات: ١٠٢ – ١٠٧].

فهذا الصبر الفريد من نوعه الوحيد في وقوعه، من إسماعيل وهو غلام لم يبلغ بَعْدُ، لدليل عظيم على عناية الله بالأنبياء والرسل قبل بعثتهم!!

والصبر المذكور من إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أشهر صبره، وإلا فصبره أوسع من هذا.

وهذا الصبر من إسماعيل مطلوب من كل مسلم ومسلمة؛ لتنفذ أوامر الله وتجنب نواهيه، فتشكر نعمه وتحسن عبادته.

صبر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

ابتلي النبي يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بفقد ولده يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما تمالأ عليه إخوته؛ فرموا به في الجب، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ ﴾[يوسف: ١٥ – ١٨].

فما كان من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن قال لهم ما أخبرنا الله به: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف: ١٨].

وعلى هذا الصبر الجميل استمر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عشرات السنين؛ فقد ذكر أن افتقاد يعقوب ليوسف دام أربعين سنة، وبعضهم يزيد على هذا العدد!!

وأُضيف إلى افتقاد يوسف افتقاده أخا يوسف وهو بنيامين على القول المشهور عند أكثر المفسرين، فما كان من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن قال لهم ما قال لهم في المرة الأولى كما أخبر الله: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ٨٣].

وواصل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الصبر مع ما بلغ به من اشتداد الحزن، قال الله تعالى عنه: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[يوسف: ٨٤ - ٨٧].

فهذا الصبر الذي قام به يعقوب مطلوب من كل مسلم ومسلمة أن يتحلى به عند افتقاد أحد الأولاد أو الأقارب، أو الأحباب، مهما كان الحب لهذا المفقود فلا رخصة لمحبه أن يتعامل بما يخالف شرع الله؛ إذْ لا حب لولد أعظم من حب يعقوب ليوسف ولا صبر على مفقود من الأولاد أعظم من صبر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والأحاديث النبوية التي تحث على الصبر والاحتساب عند فقد الأحباب تعد زادًا عظيمًا لمن أصيب بهذا؛ فنتحف القارئ بما تيسر منها:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه، إلا الجنة!**». أخرجه البخاري رقم (٦٤٢٤).

قال الحافظ ابن حجر في "الفتح" (٢٤٢/١١): «قوله: صفيه: هو: الحبيب المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال لنسوة من الأنصار: «**لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه، إلا دخلت الجنة!**» فقالت امرأة منهن: أو اثنان يا رسول الله؟ قال: «**أو اثنان**». أخرجه مسلم رقم (٢٦٣٢)، وأصله في البخاري رقم (٦٦٥٦).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من أثكل ثلاثة من صلبه، فاحتسبهم على الله - فقال أبو عشانة مرة: في سبيل الله ولم يقلها مرة أخرى -، وجبت له الجنة!**». أخرجه أحمد (١٤٤/٤)، والطبراني في "الكبير" (٣٠٠/١٧)، وإسناد الطبراني صحيح.

وعن أبي سلمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**بخ! بخ! لخمس ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه!**». أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (٤٣٣/٧)، وأحمد (٤٤٣/٣)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (١٦٧)، وابن حبان رقم (٧٣٠)، والحاكم (٥١١/١-٥١٢)، وصححه شيخنا ووالدنا الوادعي في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" رقم (١٢٢٩).

والآثار بعد الأحاديث نور على نور فدونك إياها:

أخرج ابن جرير في "تفسيره" (٦٢٠/١) بسند صحيح عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نعي إليه أخوه قثم وهو في سفرٍ، فاسترجع

ثم تنحى عن الطريق فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[البقرة: ٤٥]!

وأخرجه المروزي في "تعظيم الصلاة" رقم (٢٠١) والحاكم في "المستدرك" (٢٦٩/٢-٢٧٠) عن زيد بن علي بن الحسين، عن أبيه قال: نعي إلى ابن عباس ابن له وهو في سفر فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم نزل فصلى ركعتين، ثم قال: فعلنا ما أمر الله به! وتلا هذه الآية: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾[البقرة: ٤٥]. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وعن ثابت البناني، قال: «مات عبد الله بن مطرف، قال: فخرج مطرف على قومه وهو مترجل في ثياب حسنة، قال: فغضبوا وقالوا: يا أبا عبد الله، يموت عبد الله بن مطرف فتخرج مدهنا في ثيابك هذه؟! قال: فقال مطرف: أفأستكين لها وقد وعدني الله على مصيبتي ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا كلها: قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٥٦-١٥٧]. أفأستكين لها بعد هذا؟قال ثابت: وقال مطرف: «ما شيء أعطاه في الآخرة قدر كوز ماء إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا». أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (٢٤٤/٧-٢٤٥)، وأحمد في "الزهد" رقم (١٣٨٩)، وهو حسن.

وعن ربيع بن سبرة قال: قال: قلت لعمر بن عبد العزيز، وقد هلك ابنه وأخوه ومولاه مزاحم في أيام: يا أمير المؤمنين، ما رأيت رجلا أصيب في أيام متوالية بأعظم من مصيبتك، ما رأيت مثل ابنك ابنا، ولا مثل أخيك أخا، ولا مثل مولاك مولى! قال: فنكس ساعة ثم قال لي: كيف قلت يا ربيع؟! فأعدتها عليه. فقال: لا والذي قضى عليهم الموت ما أحب أن شيئا من ذلك كان لم

يكن من الذي أرجو من الله فيهم! أخرجه يعقوب بن سفيان في "المعرفة والتاريخ" (٦١٠/١) بإسناد صحيح.

وعن بشر قال: كان المعافى صاحب سفيان أصيب بابنين له قتلا، ،وأصيب بماله فما رؤي عليه أثر جزع ولا سمع من دار صوت. ذكره المروزي في "الورع" رقم (٦٨٣).

قال ابن ناصر الدين الدمشقي في "برد الأكباد عند فقد الأولاد" ص (٦٦): «والابتلاء في الأولاد من أعظم الابتلاء وأثقل الأنكاد، وهو نار تستعر في الفؤاد، وحرقة تضطرم في الأكباد؛ ولهذا كان ثواب الصبر على ذلك جزيلاً، ويكون أجره في ميزان يوم القيامة ثقيلاً!».

صبر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

ابتلي هذا النبي الكريم والرسول العظيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بابتلاءات متنوعة وكان من أشدها إن لم يكن أشدها افتتان امرأة عزيز مصر بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم افتتان مجموعة من النساء به عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالى مخبرًا عن هذه الفتنة: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[يوسف: ٢٣]، وقال تعالى في افتتان النسوة به عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ

﴿إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[يوسف: ٣٠ – ٣٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها : أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة؛ فإنه كان شابًا وداعية الشباب إليها قوية، وعزبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبًا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص ومع ذلك توعدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها : صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟!». نقلاً من "مدارج السالكين" (١٥٦/٢).

وقال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٥٩): «كان صبر يوسف الصديق عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه، أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبيه، وباعوه بيع العبد».

ومن عجيب صبر يوسف: أنه لما دعي إلى الخروج من السجن أبى، حتى قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**يرحم الله لوطا! لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف، ثم أتاني الداعي لأجبته**» أخرجه البخاري رقم (٣٣٨٧)، ومسلم رقم (١٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا الصبر من يوسف عند الافتتان به حجة على جميع أفراد المسلمين أنه ليس لأحد منهم أن يرتكب ما حرم الله مثل الزنا والقتل، ولو أخذ ماله ولو سجن، إلا في أمر قد رخصت فيه الشريعة.

صبر أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

لم يخص الله بأكمل المدح أحدًا من الأنبياء والرسل على الصبر في الابتلاء بالمرض كما خص نبيه أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث قال تعالى فيه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[ص: ٤٤].

فأيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابتلي بالمرض لمدة ثمانية عشر عامًا كما في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند ابن حبان رقم (٢٨٩٨) وغيره، قال الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" (٥١١/١) في هذا الحديث: وهذا غريب رفعه جدا، والأشبه أن يكون موقوفًا. قلت: وكونه موقوفًا فهو مما لا يقال بالرأي والحدس، وأنس لم يكن يأخذ من كتب أهل الكتاب، فله حكم الرفع، وقد صححه مرفوعًا الحافظ ابن حجر في "مختصر زوائد البزار" رقم (١٨٤٩)، والبوصيري في "إتحاف الخيرة المهرة" رقم (٨٧٩٦)، والألباني في"الصحيحة" رقم (١٧) وغيرهم. فتركه القريب والبعيد وذهب عنه أهله وأصدقاؤه وأحبابه، ومع هذا كله بقي أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صابرًا. وعند اشتداد هذا البلاء به توجه أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بالتضرع إلى ربه، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٣].

فلم يقل: عجل لي بالشفاء! إلى متى هذا البلاء؟!

فبسبب هذا الصبر الكريم والأدب الرفيع، منح الله أيوب العافية، ورد عليه أهله وأمواله ومثلهم معهم، قال تعالى مخبرًا عما أعطاه أيوب ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٤].

فكل مسلم ومسلمة ابتلي بمرض فليصبر؛ إذْ لا صبر في حق المصابين بالأمراض أكمل من صبر أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ !

وها هي الأحاديث نضعها بين يدي القارئ تحث على ذلك غاية الحث:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الطاعون، فأخبرني «**أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابرا محتسبا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد!**». أخرجه البخاري رقم (٣٤٧٤).

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أصابني رمد فعادني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فلما برأت خرجت، قال: فقال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرأيت لو كانت عيناك لما بهما، ما كنت صانعًا؟**» قال: قلت: لو كانتا عيناي لما بهما، صبرت واحتسبت، قال: «**لو كانت عيناك لما بهما، ثم صبرت واحتسبت، للقيت الله** عَزَّوَجَلَّ **ولا ذنب لك!**». قال إسماعيل: «**ثم صبرت واحتسبت، لأوجب الله لك الجنة!**». أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" رقم (٥٣٢)، وأحمد (٣٧٥/٤)، وحسنه والدنا الوادعي في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" رقم (٣٤٣).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله: يا ابن آدم، إذا أخذت كريمتيك فصبرت عند الصدمة واحتسبت، لم أرض لك ثوابا دون الجنة**». أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" رقم (٥٣٥)، وصححه الألباني في "صحيح الأدب المفرد" رقم (٤١٥).

وقد فقه السلف هذه الأحاديث فقهًا دقيقًا، يدل على ذلك: ما جاء عنهم من الآثار والأخبار: فعن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان يقول: ما أحسن

صنع الله عَزَّوَجَلَّ إلي! أخذ مني واحدة وترك لي ثلاثة. وكان قطع رجله خرجت من الركبة قال: وكان يقول: «وايمنك لئن كنت ابتليت لقد عافيت، ولأن أخذت لقد أبقيت!». أخرجه أحمد في "الزهد" رقم (٢٢١٤). بسند صحيح.

وعن بكر بن ماعز قال: كان بالربيع بن خثيم خبل من الفالج؛ فكان يسيل من فيه لعاب. فمسحته يومًا، فرآني كرهت ذلك ، فقال: «والله ما أحب أنه بأعتى الديلم على الله عَزَّوَجَلَّ!». أخرجه هناد في "الزهد" رقم (٣٨٤)، والفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٥٧١/٢)، وأبو نعيم في "الحلية" (١١٥/٢)، وهو صحيح.

وعن إسماعيل بن زربي، قال: سمعت سعيد بن جبير، يقول: «ما زال البلاء بأصحابي حتى رأيت أن ليس لله عَزَّوَجَلَّ في حاجة، حتى نزل في البلاء!».

أخرجه عبد الله بن أحمد في "زوائد الزهد" رقم (٢٣٣٠)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢٨١/٤). وهو صحيح إلى إسماعيل، قال الذهبي في "تاريخ الإسلام" (٨١٧/٣)، ذكره أبو حاتم ولم يلينه. وقال الأزدي: يتكلمون فيه.

وعن سفيان، عن أبي حيان، عن أبيه قال: «قدمت الشام، فقلت: هل من الجند أحد مريض نعوده؟ فقالوا: لا، إلا سويد بن مثعبة الحنظلي. فدخلت عليه، فلولا أني سمعت امرأته تقول: أهلي فداؤك! ما أطعمك؟! ما أسقيك؟! ما ظننت أن دون الثوب شيئا، إني قد خفت فكشف الثوب عن وجهه، فقال: «يا هذا، لعلك يسوءك الذي ترى بي؟» فقلت: نعم - أو قال: قلت: إي -، والذي لا إله غيره، قال: فلا يسوءك ذلك، فلقد دبرت حرقفتي[1] - أو قال: الحراقف - مني،

---

(١) الحَرقفة: عَظْم رأس الورك.

فما لي ضجعة منذ كذا وكذا إلا على حر وجهي! والذي نفس سويد بيده ما يسرني أنه نقصت منه قلامة ظفر».

أخرجه ابن المبارك في "الزهد" رقم (٤٣٨)، بإسناد صحيح.

أنبياء ورسل لم يستجب لهم قط ومع هذا صبروا:

روى الإمام البخاري رقم (٥٧٥٢)، ومسلم رقم (٢٢٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عرضت علي الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي وليس معه أحد!**».

فقوله: «**والنبي وليس معه أحد**» دليل على عظيم صبر هذا الصنف من الأنبياء؛ لأن طول المدة في الدعوة إلى الله: مع عدم الاستجابة يجلب اليأس وغير ذلك. ومع هذا لم يحصل لهم ذلك فيا لله ما أوسع عطاء الله الصبر لمن يشاء من عباده!

فأين الدعاة إلى الله والعلماء والملوك من هذا الصبر المعطى؟!

ألا يتسببون في إعطاء الله لهم منه؟! قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء: ٢٠].

فهؤلاء الأنبياء بالرغم من طول مدة الدعوة مع عدم الاستجابة، إلا أنهم صبروا.

خلاصة ما سبق ذكره من صبر الأنبياء والرسل جملة وتفصيلا عمومًا وخصوصًا:

فيما يتعلق بنا أنه زادٌ لنا وتقوية لصبرنا ودواء وشفاء لضعفنا، فيحصل لنا به تكامل صبرنا وصلاح أحوالنا في كل المجالات في مجال الدعوة إلى الله، وفي

حال التسلط من قبل المؤذين وفي حال فقد الأحباب، وفي الابتلاءات بالأمراض وفي الإصابة بالفقر وفي الافتتان بالشهوات، وغير ذلك، وفي إصلاح أنفسنا عمومًا.

فالله أسال أن ينفعنا بما نتعلم ونعلم ونؤلف وندعو، وأن يرزقنا العمل بالعلم والاقتداء برسولنا الكريم ﷺ وصحابته، ومن تبعهم بإحسان!

الفصل الرابع: صبر الصديقين

تعريف الصديقين:

الصِّديق: اسم فاعل للمبالغة، والمراد به: كثير التصْدِيق لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكثير الصدق مع الله ومع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأولياء الله سبحانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة النبوية" (٤/٢٦٦): «فالصديق قد يراد به الكامل في الصدق، وقد يراد به الكامل في التصديق».

وقال ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (١/٢٩٩) في الصديقية: «هي كمال الإيمان بما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمًا وتصديقًا وقيامًا به».

قلت: هذا التعريف جامع مانع. ويدل على صحته قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[الحديد: ١٩].

فهذا الصنف هو الكامل في التصديق لما جاء من عند الله.

وقال الله في الصحابة الذين جمعوا بين الأمرين: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[الحشر: ٨].

فالهجره والنصرة والجهاد والتفقه في الدين وغير ذلك دليل التصديق والصدق مع الله، فمرتبة الصِّديقين على قسمين:

الأول: كثرة التصديق لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يشترك فيه جميع المؤمنين الذين سلموا من النفاق.

الثاني: كثرة الصدق مع الله، وهذا القسم خاص بأهل العلم والعمل به. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[النساء: ٦٩].

فجعل الله سبحانه في هذه الآية الصديقين في أعلى مرتبة ينالها أتباع الأنبياء والرسل؛ إذْ لا أعلى منها إلا مرتبة الأنبياء والرسل، وهذه منزلة الراسخين في العلم في الشريعة، **قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "طريق الهجرتين"** (٧٦٤/٢): « وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية ولهذا قرنهم الله تعالى في كتابه بالأنبياء فقال:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[النساء: ٦٩]. فجعل درجة الصديقية تلي درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأُمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأْتي أمر الله وهم على ذلك».

وقال المفسر النيسابوري في "تفسيره" (٤٤٢/٢): «وأما الصديق فمبالغة الصادق، وهو: من غلب على أقواله الصدق. وإنه لخصلة مرضية في جميع الأديان، ومحققة للنطق الذي هو من مقومات الإنسان ... وكفى بنقيضه مذمة أن الكفر ليس سوى التكذيب. وذكر المفسرون أكثرهم أن الصديقين في الآية كل من صدق بكل الدين، لا يتخالجه فيه شك».

قلت: فالصِّديقية على مراتب:

أعلاها: مرتبة العلماء الربانيين.

ثانيها: مرتبة سفرائهم وأمثالهم.

ثالثها: مرتبة كل من صَدَّقَ المرسلين.

فسيكون كلامنا على صبر الصِّديقين على جهة العموم لمراتبهم المذكورة.

وما سأذكره من أنواع صبر الصديقين فهو من باب الأمثلة والبيان، لا من باب الإحصاء والاستقصاء؛ لأن كل ما جاءت به الشريعة يقوم به الصديقون جملة وتفصيلاً، على تفاوت في ما يقومون به ويصبرون عليه.

وقد اخترت مصطلح الصديقين؛ لحسن الثناء عليهم من قبل الله ورسوله وأوليائه، أما ثناء الله عليهم فقد سبق شيء من الآيات المذكورة آنفًا، وأيضًا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٢٣].

وأما ثناء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا**». أخرجه البخاري رقم (٦٠٩٤)، ومسلم رقم (٢٦٠٧).

قال العلامة ابن القيم بعد إيراده للحديث في "مدارج السالكين" (٢/٢٦١): «فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها، وهي غايته. فلا ينال درجتها كاذب ألبتة، لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله».

وقال العلامة ابن عثيمين في شرح الحديث في "شرح رياض الصالحين" (١/٢٩٥): «فالرجل الذي يتحرى الصدق يكتب عند الله صديقًا، ومعلوم أن الصديقية درجة عظيمة لا ينالها إلا أفذاذ من الناس».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا**». أخرجه مسلم رقم (٢٥٩٧).

قال العلامة الطيبي في "شرح المشكاة" (١١٨/٩): «قوله: «لا ينبغي لصديق» حكم مرتب على الوصف المناسب، وذلك أن هذه الصفة تالية صفة النبوة...والأنبياء إنما بعثوا رحمة للخلق مقربين البعيد والطريد إلى الله تعالى ورحمته، واللاعن طارد لهم وطالب لبعدهم منها، فاللعنة مخالفة لحاله».

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي بكر وهو يلعن بعض رقيقه، فالتفت إليه، فقال: «**لعانين وصديقين؟! كلا ورب الكعبة!!!**»، قال: فأعتق أبو بكر يومئذ بعض رقيقه، ثم جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: لا أعود. أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" رقم (٣١٩)، والطبراني في "الأوسط" (٣٤١/٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٤٥/٧)، وصححه الألباني.

قال العلامة الطيبي في "شرح المشكاة" (١٤٥/٩): «قوله: «لعانين وصديقين» أي هل رأيت صديقًا يكون لعانًا؟! كلا والله، لا تتراءى ناراهما. فالواو للجمع، أي: لا يجتمعان أبدًا. وفي الكلام معنى التعجب».

وقال القاري في "مرقاة المفاتيح" (٦٠٥/٨): «قوله: «لعانين وصديقين» بتقدير همزة الاستفهام في صدر الكلام، أي: هل رأيت لعانين وصديقين؟ أي: جامعين بين هاتين الصفتين. والعطف لتغاير الصفة».

وعن عمرو بن مرة الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقمته، فممن أنا؟ قال: «**من الصديقين والشهداء**». أخرجه ابن حبان رقم (٣٤٣٨). وابن خزيمة رقم (٢٢١٢)، والبزار كما في "كشف الأستار" رقم (٢٥)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب" رقم (٣٦١)، وشيخنا الوادعي في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" رقم (١٠١٧).

وأما ثناء أولياء الله من العلماء على الصديقين، فكثير، ومن ذلك:

قال ذوالنون المصري: «تعلق الناس بالأسباب، وتعلق الصديقون بولي الأسباب». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣٥١/٩).

وقال سهل بن عبد الله التستري: «العيش على أربعة أوجه: عيش الملائكة في الطاعة، وعيش الأنبياء في العلم وانتظار الوحي، وعيش الصديقين في الاقتداء، وعيش سائر الناس، عالمًا كان أو جاهلا، زاهدًا كان أو عابدًا في الأكل والشرب». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٩٨/١٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الصفدية" ص (٢٥٥): «ولهذا كان أفضل أولياء الله هم الصديقون الآخذون عن الأنبياء عليهم السلام».

وقال العلامة ابن القيم في "بدائع الفوائد" (٧٢/١-٧٣): «وأما الصديق فهو الذي كمل مقام الصديقية لكمال بصيرته، حتى كأنه قد باشر بصره مما أخبر به الرسول ما باشر قلبه، فلم يبق بينه وبين إدراك البصر إلا حجاب الغيب، فهو كأنه ينظر إلى ما أُخبر به من الغيب من وراء ستوره، وهذا لكمال البصيرة، وهذا أفضل مواهب العبد وأعظم كراماته التي يكرم بها».

وقال أيضًا في "مدراج السالكين" (١٤٨/٢): «التسليم هو محض الصديقية، التي هي بعد درجة النبوة، وإن أكمل الناس تسليما: أكملهم صديقية».

وقال الحافظ الذهبي في "السير" (٣٣٨/١٩): «اعلم أن الدين شطران: أحدهما ترك المناهي، والآخر فعل الطاعات، وترك المناهي هو الأشد، والطاعات يقدر عليها كل أحد، وترك الشهوات لا يقدر عليها إلا الصديقون».

وقال الحافظ ابن رجب في "لطائف المعارف" ص (١٠٤): «لما انطوى بساط النبوة من الأرض بوفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبق على وجه الأرض أكمل من درجة الصديقية».

وقال الفيروز آبادي في "بصائر ذوي التمييز" (٤٠٠/٣): «والصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول، مع كمال الإخلاص للمرسل».

فائدة نفيسة في الإجماع على صديقية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال الجرجاني في "تفسيره" (٦٠٨/٢): «والصديق المجمع عليه أبو بكر».

وقال القرطبي في "تفسيره" (٤٥٠/٦): «وأجمع المسلمون على تسمية أبي بكر الصديق صديقا. كما أجمعوا على تسمية محمد رسولا».

وقال به الثعالبي في "تفسيره" (٣٤٢/١)، والجزائري في "تفسيره" (٥٠٥/١).

وقال النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" (١٨١/٢): «أجمعت الأئمة على تسميته صديقًا».

وقال الصالحي في "سبل الهدى والرشاد" (٢٣٧/١١): «اجتمعت الأمة على تسميته بالصديق».

وقال صاحب كتاب "جامع الآثار القولية والفعلية الصحيحة لأبي بكر الصديق" ص (٢٠): «وقد أجمعت الأمة على تسميته بالصديق».

قلت: لا أعلم خلافا في هذه المسألة.

عموم صبر الصديقين أفضل صبر بعد صبر الأنبياء والمرسلين:

لقد جمع الله في الذكر بين النبيين والصِّديقين، وما هذا إلا لأن الصديقين أتباع الرسل وخلفاؤهم فهو أقرب الناس إليهم وألصق بهم وأحق من اتبعهم، فكذلك فهم أحق الناس بصبرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة في الصبر" ضمن جامع المسائل (١٦٧/١) عن المسلم: «ما يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جدًا، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون. وكان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أوذي يقول: «**يرحم الله موسى؛ لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**». وأخبر عن نبي من الأنبياء أنه ضربه قومه فجعل يقول: «**اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

وقال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٦٤): «وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل وأعظمهم اتباعًا أصبرهم في ذلك».

قلت: صبر الصِّديقين أعم صبر بعد صبر المرسلين والنبيين.

وقد رأيت أن أذكر نبذًا من صبر الصديقين في الأعمال الجليلة والأحوال النبيلة؛ ليعرف صبرهم المبارك، فمن ذلك:

أصل صبر الصديقين: مخالفة النفس والهوى والشيطان:

قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (١٢٥) وهو يتحدث عن صبر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ولذلك استحق السبعة المذكورين في الحديث الذين يظلهم الله في ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته، فإن صبر الإمام المتسلط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع جمال الداعي ومنصبه، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما

وافتراقهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك وإظهاره للناس من أشق الصبر».

وقال الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (٤٩٠/١): «فهذا الجهاد يحتاج أيضا إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه، غلبه وحصل له النصر والظفر، وملك نفسه، فصار عزيزا ملكا، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك، غلب وقهر وأسر، وصار عبدا ذليلا أسيرا في يدي شيطانه وهواه».

قلت: هذا الصبر الذي منحه الله الصِدِّيقين هو من جنس صبر المرسلين، **قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "صيد الخاطر"** ص (٢٦٨-٢٦٩): «قرأت سورة يوسف عليه السلام، فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس، ورفع قدره بترك ما ترك. فتأملت خبيئة الأمر، فإذا هي مخالفة للهوى المكروه.

فقلت: وا عجبًا! لو وافق هواه، من كان يكون؟! ولما خالفه، لقد صار أمرًا عظيمًا، تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، فيا له عزًّا وفخرًا أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب!».

قلت: مخالفة النفس والهوى وشياطين الجن والإنس هو الموت الأحمر على النفوس إلا نفوس الصديقين؛ فإنها تراه العافية لها، والغذاء والدواء والنعيم، فلا قهر أجلَّ وأنفع وأدوم وأرفع من قهر ما ذكرنا فاستعمل صديقيتك في هذا المجال لتدخل في ديوان الذين قال الله فيهم: ﴿ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا ﴾[الأحزاب: ٢٣].

صبر الصديقين على قيام الليل:

الأدلة من القرآن والسنة على شرعية قيام الليل والحث على ذلك كثيرة جدًا، وانعقد الإجماع على مشروعيته واستحبابه، وهو دأب الصالحين قبل أمة الإسلام، ولا وصول إلى الرغبة في هذه العبادة عند كثير من المسلمين إلا بعد المرور بمرحلة الصبر، والمجاهدة للنفس على القيام بهذه العبادة العظيمة:

قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[طه: ١٣٢]. والصلاة شاملة للفرض والنفل، وأجل صلاة النفل صلاة الليل، ومن عرف بالقيام بها عرف بقوة الصبر وغير ذلك من الصفات الكريمة.

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر كان يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله، ويقول: الصلاة! الصلاة! ويتلو هذه الآية: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[طه: ١٣٢]. وهو أثر صحيح. أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم/٤٧٧).

وعن عبد السلام بن حرب قال: «ما رأيت أصبر على السهر من خلف بن حوشب[(١)]؛ سافرت معه إلى مكة فما رأيته نائمًا بليل حتى رجعنا!». أخرجه ابن أبي أبي الدنيا في "المصدر نفسه" رقم (٧٤، ١١٧) بإسناد حسن.

وأخرج ابن أبي الدنيا أيضًا رقم (١١٨) وأبو نعيم في "الحلية" (١٩٦/٨) بإسناد حسن عن أبي عبد الرحمن المقرئ قال: «ما رأيت أحدًا قط أصبر على طول القيام من عبد العزيز بن أبي رواد».

---

(١) هو: خلف بن حوشب الكوفي، ثقة، مات سنة (١٤٠). "التقريب" (١٧٢٨).

وعن هشام بن جابر الأزدي قال: قالي لي ثابت البناني: «ما رأيت أحدًا أصبر على طول القيام، والسهر من يزيد بن أبان. يعني: الرقاشي». أخرجه ابن أبي الدنيا في "المصدر السابق" رقم (١١٩) وهو أثر جيد.

وعن هشام بن حسان قال: «ما رأيت أحدًا قط أصبر على طول القيام والسهر من ثابت![1] صحبناه مرة إلى مكة فكنا إن نزلنا ليلاً فهو قائم يصلي حتى يصبح، وإلا فمتى شئت أن تراه أو تحس به مستيقظًا ونحن نسير إما باكيًا وإما تاليًا». أخرجه ابن أبي الدنيا في "المصدر السابق" رقم (١٥٢) بسند جيد.

وفي "المصدر السابق" رقم (٤٤٥) عن الحسن البصري قال: في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[الذاريات: ١٧] قال: «يكابدون». وهو أثر حسن.

قلت: كم من محب لهذه العبادة ولكنه محروم منها، ومن أسباب هذا الحرمان ضعف الصبر، فيا ليت من كان هكذا يتزود من الصبر؛ ليلحق بركب الصالحين.

صبر الصديقين على الاستقامة على دين الله:

الاستقامة هي سلوك طريق الله المستقيم فلا يخرج عنه إلى بدعة ولا يحاد عنه إلى معصية، والمعصوم من عصم الله، والمُثبت من أعانه الله وصبَّره الله على ذلك، فقوام هذه الاستقامة الصبر، فهو عدتها وملاكها.

---

(١) هو: ثابت بن أسلم البناني أبو محمد، ثقة عابد، مات سنة (بضع وعشرين ومائة). «التقريب» (٨١٠).

قال قتادة السدوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستقامة أن تلبث على الإسلام، والطريقة الصالحة، ثم لا تمرق منها، ولا تخالفها، ولا تشذ عن السنة، ولا تخرج عنها». أخرجه ابن بطة في "الإبانة" (٣١٨/١)، وهو صحيح.

وقال محمد بن المنكدر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كابدت نفسي أربعين سنة، حتى استقامت». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٤٧/٣)، وإسناده حسن.

وقال أبو علي الجوزجاني: «كن طالبًا للاستقامة لا طالبًا للكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة». نقلًا من "شرح العقيدة الطحاوية" (٧٤٧/٢) لابن أبي العز.

وقال غيره: «سبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامة». "المصدر نفسه" (٧٤٨/٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "المستدرك على الفتاوى" (١٥٣/١): «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة!».

وقال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٣٣٨/٢): «فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي: القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله».

قلت: أليق الناس بالاستقامة على دين الله صنف الصديقين، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٢٣].

صبر الصديقين في التمسك بالسنة:

أبرك أنواع الصبر وأجلّ منافعه هو: الصبر في إحياء ما أماته الناس من هدي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فأكرم وأنعم بهذا الصبر، لا يلحق شأوه ولا يدرك قعره، ولا يدانيه غيره!

عن عتبة بن غزوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم!**». أخرجه المروزي في "السنة" رقم (٢٤)، والطبراني في "الكبير" (٢٢٥/١٠)، وفي "مسند الشاميين" رقم (١٧).

وللحديث شواهد.

عن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (٢٢٤)، وأبي داود رقم (٤٣٤١)، والترمذي رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه رقم (٤٠١٤) والحاكم (٣٢٢/٤).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي رقم (٢٢٦٠)، والمزي في "تهذيب الكمال" (٣٨٥/٢١-٣٨٦)، والهروي في "ذم الكلام" رقم (١٤٦٦).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البزار في "مسنده" رقم (١٧٧٦)، والطبراني في "الكبير" (٢٢٥/١٠) فالحديث حسن إن شاء الله.

وأخرج أحمد (٥٨/١) والترمذي رقم (٣٧١١)، وابن ماجه رقم (١١٣)، بإسناد صحيح، عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال يوم الدار: «إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد إلي عهدا؛ فأنا صائر إليه»، وفي لفظ: «وأنا صابر عليه!» ، قال قيس: فكانوا يرونه ذلك اليوم.

قلت: أي: اليوم الذي قتل فيه. والمراد بالعهد المذكور ما جاء عند أحمد (٨٦/٦، ٨٧، ١٤٩) وفي "فضائل الصحابة" رقم (٨١٦)، والترمذي رقم (٣٧٠٥)، وابن ماجه رقم (١١٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال

لعثمان: «**يا عثمان، إن الله عز وجل لعله أن يقمصك قميصا، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه**».

وقد خرجه العلامة الألباني في "الصحيحة" رقم (٤٩٤).

وعن الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم».

أخرجه الآجري في "الشريعة" رقم (٢٩٤)، والأصبهاني في "الحجة في بيان المحجة" (١٠١/١-١٠٢)، وابن الجوزي في "تلبيس إبليس" ص (١٩). وهو صحيح.

وأخرج الدارمي (رقم/٢٢٢) عن الحسن البصري قال: «سنتكم ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ بينهما: بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقلَّ الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي: الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذاكم - إن شاء الله - فكونوا». وهذا الأثر يستشهد به في بابنا هذا.

صبر الصديقين على الصمت إلا في خير:

أخرج أحمد في "المسند" رقم (١٥٩/٢) (١٧٧/٢)، والترمذي رقم (٢٥٠١)، وابن المبارك في "الزهد" رقم (٣٨٥)، والدارمي رقم (٢٩٩/٢)، وابن أبي عاصم في "الزهد" رقم (١)، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صمت نجا**».وهو حديث حسن.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع أبي موسى في مسير له فسمع الناس يتكلمون فسمع فصاحة وبلاغة، قال: فقال: «يا أنس، هلم فلنذكر الله ساعة؛

فإن هؤلاء يكاد أحدهم أن يفري الأديم بلسانه!». أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤٢/٧)، وسنده صحيح.

وقد كان الصحابة يخافون على أنفسهم من غوائل ألسنتهم خوفًا شديدًا

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «والذي لا إله إلا هو ما على وجه الأرض أحوج إلى طول سجن من لسان!». أخرجه الطبراني في "الكبير" (١٦٢/٩) وابن أبي شيبة في "المصنف" (٤٨٩/١٣)، وهناد في "الزهد" رقم (١٠٩٥)، وابن أبي الدنيا في "الصمت" رقم (١٦)، وهو صحيح.

وعن سعيد بن جبير قال: رأيت ابن عباس آخذ بلسانه، وهو يقول باللسان: «قل خيرًا تغنم أو اصمت تسلم، قبل أن تندم!». أخرجه أحمد في "الزهد" (١٠٥١)، وهو أثر جيد.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من أكثر الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل!». أخرجه أحمد في "الزهد" (٨٨٢)، وسنده لا بأس به.

وعن يحيي القطان، قال: «ما ساد ابن عون الناس أن كان أتركهم للدنيا، ولكن إنما ساد ابن عون الناس بحفظ لسانه!». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣٧/٣)، وسنده صحيح.

وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال: قال رجل لسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أوصني! قال: «لا تكلم» . قال: وكيف يصبر رجل على أن لا يتكلم؟! قال: «فإن كنت لا تصبر عن الكلام فلا تتكلم إلا بخير أو اصمت». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصمت" رقم (٤٤)، بإسناد صحيح.

وعن بشر بن الحارث، قال: «الصبر هو الصمت والصمت من الصبر، ولا يكون المتكلم أورع من الصامت إلا رجل عالم يتكلم في موضعه، ويسكت في موضعه». أخرجه أبو نعيم في "الحلية"(٣٤١/٨)، والبيهقي في "الشعب" (٨٥/٧)، بإسناد جيد.

قلت: ملاك أمر كل مسلم ومسلمة: إمساك لسانه عن الخوض في الأعراض خصوصًا في أعراض أهل السنة، فإن لم يحصل هذا الإمساك فما أسرع الوصول إلى ما توعد الله به هذا الصنف، فقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب!**».

أخرجه البخاري رقم (٦٤٧٧)، ومسلم رقم (٢٩٨٨)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ومن الغوائل في بعض طلبة العلم في أهل السنة: حب التصدر في الجرح والتعديل؛ فلا إله إلا الله كم أفسد هذا الظهور من أمور، وكم جلب من شرور، وكم حطم من خيرٍ كانت تقر به العيون ويسعد به المتقون، وكم يشمت من أعداء ويمكن المتربصين ويفسد من أخوة!! فننصح بعدم تلقي الجرح والتعديل من هذا الصنف؛ لأن هذا الفن العظيم يُقبل من الراسخين في علوم الشريعة، وسفرائهم الذين يتلقونه عنهم.

صبر الصديقين على اختيار اليسر في الأمور ما لم يكن فيه إثم:

أخرج البخاري رقم (٣٥٦٠)، ومسلم رقم (٢٣٢٧) عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أنها قالت: «ما خير رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها».

وقال ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٥١): أنشدني الحسين بن عبد الرحمن:

إذا لم تسامح في الأمور تعقدت ... عليك فسامح واخرج العسر

فلم أر أوفى للبلاء من التقى ... ولم أر للمكروه أشفى من الصبر

قلت: أهل هذا الصبر المحمود ييسرون ولا يعسرون، ويتطاوعون ولا يختلفون، ويتفقون ولا يفترقون، يقدمون الأخوة ويؤثرونها على العداوة، ويبتغون ما عند الله قبل ما عند المخلوق، الإصلاح مطلوبهم والعفو محبوبهم والصبر عدتهم؛ فلله درهم، وعلى الله أجرهم!!

صبر الصديقين على تحقيق المروءة:

قال العلامة ابن العربي في "القبس في شرح موطأ مالك بن أنس" (٨٠٥/٢): «وضبط المروءة مما عسر على العلماء، ولم ينطق فيه فقهاؤنا بكلمة، وقد بيناه في المسائل على الإيضاح. والضابط لكم الآن فيه: ألا يأتي أحد منكم بما يعتذر منه مما يبخسه عن مرتبته عند أهل الفضل».

وقال أبو عبد الله الكاتب كما في "المروءة وخوارمها" ص (٥٨) لمشهور بن حسن: «الصبر على حقوق المروءة أشد من الصبر على ألم الحاجة».

وقال سلم بن قتيبة في "الظرف والظرفاء" ص (٩٤): «المروءة الصبر على الرجال أي الصبر على المكاره في معاشرتهم وقضاء مآربهم».

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان كما في "أنساب الأشراف" (٦١/٤) «ما المروءة؟ قال: الصبر على ما ينوبك، والصمت حتى تحتاج إلى الكلام».

وقال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٦٥): وهو يتحدث عن قوة الصبر: «فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر».

قلت: وترك المعاصي من المرؤة قال أبو حنيفة: «رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة فصارت ديانة». أخرجه ابن الأبار في "معجمه" ص (٧٣).

وأخرج البيهقي في "مناقب الشافعي" (١٨٨/٢) وابن أبي حاتم في "آداب الشافعي ومناقبه" رقم (٨٥) أن الشافعي كان يقول لابنه أبي عثمان: والله لو أعلم أن الماء البارد يكلم مروءتي ما شربت إلا حارًا».

قلت: المروءة تتضمن صون النفس وهو حفظها وحمايتها عما يشينها ويعيبها، ويزري بها عند الله عَزَّوَجَلَّ وملائكته وعباده المؤمنين وسائر خلقه، وتتضمن المحافظة على الورع وتوفير الحسنات بتجنب السيئات. وكل هذه تفتقر إلى الصبر المحمود.

وكما أن المروءة رفيعة فأهلها أفاضل الناس وخيارهم، قال سليمان: يا أبا حازم، من أفضل الخلائق؟ قال: أولو المروءة والنهى! قال: فما أعدل العدل؟ قال: كلمة صدق عند من ترجوه وتخافه». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٢٣٥/٣)، وإسناده حسن.

صبر الصديقين على الفقر:

قال الله تعالى مادحًا ومثنيًا على الصابرين على الفقر: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ ﴾[البقرة: ١٧٧]. **قال أبو حيان في "تفسيره"** (١٤٠/٢): «أكثر المفسرين على أن البأساء هو: الفقر».

وقال الحافظ ابن كثير في"تفسيره" (٤٤/٢): «﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال؛ لشدته وصعوبته».

فائدة: قال القرطبي في آية ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾[البقرة: ١٧٧]، في "تفسيره" (٥٩/٣): «قال علماؤنا: هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام؛ لأنها

تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته... والصبر في الشدائد. وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب».

فائدة أخرى: قال أبو حيان في "تفسيره" (٢/١٤٠-١٤١): «وهذا من باب الترقي في الصبر من الشديد إلى أشد، فذكر أولا الصبر على الفقر، ثم الصبر على المرض وهو أشد من الفقر، ثم الصبر على القتال وهو أشد من الفقر والمرض».

وعن أبي سعيد الخدري، أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده قال: «**ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبره الله. وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر!**». أخرجه البخاري رقم (٦٤٧٠)، ومسلم رقم (١٠٥٢)، واللفظ له.

وتقدم قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خير عيشنا بالصبر». وهو صحيح.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «حبذا المكروهان: الموت، والفقر! وايم الله ما هو إلا الغنى والفقر! وما أبالي بأيهما ابتليت؛ لأن حق الله في كل واحد منهما واجب». أخرجه ابن المبارك في "الزهد" رقم (٥٢١)، وأحمد في "الزهد" رقم (٨٥١)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/١٣٢)، وهو أثر حسن.

وعن إبراهيم بن بشار قال: «نظر إبراهيم بن أدهم إلى رجل قد أصيب بمال ومتاع ووقع الحريق في دكانه فاشتد جزعه حتى خولط في عقله ، فقال: يا عبد الله، إن المال مال الله؛ متعك به إذ شاء وأخذه منك إذ شاء؛ فاصبر لأمره ولا تجزع؛ فإن من تمام شكر الله على العافية الصبر له على البلية. ومن قدم وجد ومن أخر فقد وندم». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٨/٣٢-٣٣)، بإسناد جيد.

وعن إبراهيم بن متة السمرقندي قال: سألت أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن، عن أحمد بن حنبل، قلت: هو إمام؟ قال: «إي والله، وكما يكون

الإمام، إن أحمد أخذ بقلوب الناس، إن أحمد صبر على الفقر سبعين سنة». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٧٦/٩).

وعن مسعر بن كدام قال: «من صبر على الخل والبقل لم يُستعبد». "السير" (١٦٥/٧).

وعن أبي محمد الأزدي البصري قال: رأى رجل الحسن بن حبيب بن ندبة في النوم بعدما مات، فقال: ما فعل الله بك؟ قال: «غفر لي؛ بصبري على الفقر في الدنيا».أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٩٢)، وهو أثر صحيح.

قلت: الفقراء الصديقون يسعد بهم الناس ولا يشقون، ويرزقون ولا يقطعون وينصرون ولا ينهزمون، قال الرسول ﷺ: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟!!!**» رواه البخاري رقم (٢٨٩٦)، وفي لفظ: «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم!**». رواه النسائي رقم (٣١٧٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسنده صحيح.

وقد جاء من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود رقم (٢٥٩٤)، والترمذي رقم (١٧٠٢) والنسائي رقم (٣١٧٩)، وهو صحيح.

فالفقراء الصديقون سادة الناس وإن احتقروا، وقادة في الخير وإن أخروا، ومفاتيح خير وإن أهملوا، وأمنة للناس وإن حوربوا.

صبر الصديقين عند الفتن العظام:

لله الحكم البالغة في الفتن التي تتغير بها أحوال المفتونين من عز إلى ذل، ومن قوة إلى ضعف ومن غنى إلى فقر ومن صلاح إلى فساد، ومن عافية إلى مرض ومن مودة إلى عداوة، ومن أخوة إلى شقاوة ومن بقاء إلى فناء.

فالعافية عند الفتن عزيزة وأعظم دواء لها هو الصبر، وقد سبق من الآيات في هذه المسألة الشيء الكثير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[الفرقان: ٢٠].

وجاءت الأحاديث في هذه المسألة أيضًا، ومنها: عن الزبير بن عدي، قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: «**اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**». سمعته من نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أخرجه البخاري رقم (٧٠٦٨).

وأخرج أبو داود رقم (٤٣٤١)، والترمذي رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه رقم (١٠١٤)، عن أبي ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله**»، وزادني غيره قال: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم!**». وقد تقدم ذكر شواهد هذا الحديث في (باب: صبر الصديقين في التمسك بالسنة) وهو حديث حسن.

ومن هذه الحكم: ما قاله أبو مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخاطبًا أصحابه-عند أن قالوا له: اعهد إلينا؛ فإن الناس قد وقعوا في الفتنة؛ فلا ندري أنلقاك بعد اليوم أم لا؟! فقال: عليكم بالجماعة؟! فإن الله لن يجمع أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ضلالة، واصبروا حتى يستريح بر، أو يُستراح من فاجر!». أخرجه الفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٣/٢٤٤-٢٤٥)، وابن أبي شيبة في المصنف"رقم (٣٨٣٤٧)، والطبراني في "الكبير" (١٧/٢٣٩-٢٤٠)، واللالكائي في "شرح أصول الاعتقاد" رقم (١٦٣،١٦٢)، وابن بطة في "الإبانة" رقم (١٤٩، ١٨٤)، والخطيب في "موضح أوهام الجمع والتفريق" (١/٤٨٠)، وابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٠)، والحاكم (٤/٥٠٦-٥٠٧)، والبيهقي في "الشعب" رقم (٧١١١)، من طرق عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أثر صحيح. قال الحافظ ابن حجر في

"التلخيص الحبير" (٥/٢٢٢٦-٢٢٢٧) بعد أن أسند الأثر عند ابن أبي شيبة: «إسناده صحيح، ومثله لا يقال من قبل الرأي».

أخي المسلم، ما يحصل بسبب الفتن من هنات وأنات لا يُجهل، ولكن الله جاعل فيها من الألطاف بعباده فوق ما تتصور؛ فالله ما فتننا ليهلكنا ولكن ليحيينا، وما أمرضنا إلا ليعافينا، ولا منعنا إلا ليعطينا وما أضعفنا إلا ليقوينا، ولا حرمنا إلا ليُمَكِّن لنا؛ فبعد العسر يسر وبعد الشدة فرج وبعد الضيق مخرج؛ فاحرص على أن تنال عند الابتلاء أربح البضاعة، وأن تظفر بأعظم تجارة. ولله در من قال:

فاصبر فإنك في النوازل رائد ... والدرب نعلم شائك وطويل
فالصبر روضات لأبناء الهدى ... ولجنة الرحمن تلك سبيل

فكلما عظمت المصيبة كانت الحاجة إلى الصبر أشد وأعظم، والمبتلون بالمحن العظام يحتاجون إلى تصبر، فعن أحمد بن مروان قال: كتب رجل من إخوان أبي عبد الله أحمد بن حنبل إليه أيام المحنة:

هذي الخطوب ستنتهي يا أحمد ... فإذا جزعت من الخطوب فمن لها
الصبر يقطع ما ترى فاصبر لها ... فعسى بها أن تنجلي ولعلها

فأجابه أحمد:

صبرتني ووعظتني فأنا لها ... فستنجلي بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان يملك عقدها ... ثقة به إذ كان يملك حلَّها

"الآداب الشرعية" لابن مفلح (٢/١٥١).

قلت: أهل هذا الصبر لا تراهم في أحزاب ولا في جبهات حزبية ولا قتالية ولا في ثورات وانقلابات، ولا في طلب ملك ولا إرادة مال ولا في تطلع إلى جاه؛

لما يعلمون أن هذه من الفتن العظام والبوائق الجسام التي لا يقوم بها دين ولا تصلح بها دنيا.

صبر الصديقين على مؤاذاة الناس:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم!**». أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" رقم (٣٨٨)، والترمذي رقم (٢٥٠٧). وهو صحيح.

وقال الحسن البصري: «ابن آدم لا تؤذ، وإن أوذيت فاصبر!». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١١)، وسنده حسن.

وقال وهيب: جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال: إن الناس قد وقعوا فيما وقعوا فيه، فحدثت نفسي أن لا أخالطهم، فقال: «لا تفعل؛ لا بد للناس منك، ولا بد لك منهم، فلهم إليك حوائج، ولك إليهم حوائج، ولكن كن فيهم أصم سمعا، وأعمى بصرا، سكوتا نطوقا». أخرجه ابن المبارك في "الزهد" رقم (٨٩٦)، وأبو نعيم في "الحلية" (١٤٤/٨).

وعن عمر بن عبد الرحمن قال: ذكروا عند وهب عبادة بني إسرائيل وسياحتهم قال: فقال وهب رَحِمَهُ اللَّهُ: «من خالط الناس فورع وصبر على أذاهم، كان أفضل عندي». أخرجه الإمام أحمد في "الزهد" رقم (٢٢٢٢) بإسناد محتمل للتحسين.

وقال عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ : «رب كلمة ذل احتملتها أورثتني عزًا طويلا!». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٧٧/٢). وسنده جيد.

وقال شريك بن عبد الله القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأسمع الكلمة فيتغير لها بولي!». "الثقات" للعجلي (٢٢٠/١).

قلت: مؤاذاة الناس عمومًا لبعضهم بعضًا لا تكاد تنتهي، ولا بقاء لأحد من المسلمين عند حدوثها على العدل والرحمة والأمانة والصدق والعفو والصفح

والحكمة إلا بالصبر المحمود؛ لأن المؤاذاة للشخص تدفعه إلى الانتقام وقد يكون الانتقام سببًا للانهزام أو مؤديًا إلى الحِمَامِ أو موقعًا في التجاوز والآثام، إلا من أخذ حقه بعدل فهو من الصديقين العظام.

وعلى كل حال: فمن لازم الصبر الجميل نرجو أن يسلم من الهنات التي ذكرناها، وإن كان له حق فليوطن نفسه على الصبر أيضًا، وليطالب بحقه بالطرق الشرعية، وسواء ناله كله أو بعضه أو لم ينله فليبق على الصبر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠].

ومن صبر الصديقين عدم الانتقام للنفس:

من المعلوم أن كثيرًا من الناس يظلم غيره ابتداء ومن غير اعتداء عليه، فكيف إذا ظلمه واعتدى عليه معتد في دمه أو عرضه أو ماله، فإنه في هذه الحال يصعب عليه الصبر على من اعتدى عليه، بل يسعى إلى الانتقام منه بكل طريق يوصله إلى ذلك، إلا أن يكون المُعتدى عليه نبيًا أو صديقًا، فإنه يلتزم العدل ويبذل الفضل.

وتعاونًا مع هذا الصنف الذي يريد النجاة من الانتقام لنفسه ويريد أن يلتحق بركب الأنبياء والرسل في صبرهم ويصير من الصديقين أقول له: هناك أسباب عظيمة متظافرة ومتلازمة، إذا عُرفت وتُدبرت وفُهمت الفهم السديد كانت من أعظم القوة في تحقيق هذا الصبر في هذه الحال، ومن هذه الأسباب الآتي:

١) **أن يعلم أن ما جرى عليه من الاعتداء أنه بقضاء الله وقدره،** فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا مجمع عليه عند أهل الإسلام، وقد نقلت هذا الإجماع في كتابي "إجماعات المفسرين". فيسلم العبد زمام أمره لمدبر الأمور، ومغير الأحوال سبحانه وتعالى.

٢) **أن يعلم أن الذين آذوه إنما هو بتسليط الله إياهم عليه،** قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة في الصبر" ضمن "جامع المسائل" (١٦٨/١): «العباد آلة! فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تسترح من الهم والغم».

٣) **أن يعلم العبد أن ما أصيب به أنه بسبب ذنوبه،** قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[الشورى: ٣٠]. قال الحسن البصري: «إن الرجل كان يشاك الشوكة يقول: إني لأعلم أنك بذنب وما ظلمني ربي عَزَّوَجَلَّ». أخرجه أحمد في "الزهد" رقم (١٦٤٧) وسنده صحيح.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة في الصبر" ضمن جامع المسائل (١٦٨/١): «فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه بسببها عن ذمهم ولومهم والوقيعة فيهم».

٤) **على المصاب بأي مصيبة نزلت به أن يرجع إلى نفسه للتعرف على ذنوبه وأخطائه** ليلومها ويسعى في إصلاحها، ولا يشغل نفسه كثيرًا بمن أصابه؛ فغفلته عن هذا أمن من مكر الله، أخرج الإمام أحمد في "الزهد" رقم (٢٠٠٧) وهناد في "الزهد" (١١٠٩) عن الربيع بن خثيم قال: «ما أنا براض عن نفسي فأتفرغ من ذمها إلى ذم غيرها إن الناس خافوا من ذنوب الناس وأمنوا على ذنوبهم». وسنده صحيح.

٥) **يهيئ نفسه للصبر خصوصًا في هذا الموطن؛** لأنه بحاجة إلى أن يعود نفسه الصبر على من جنى عليه، وأنه إن لم يفعل هذا وقع في الظلم والمفاسد التي لا تعد ولا تحصى، بل وفي بعض الأحيان في المهالك، وهل كثر هلاك بني آدم إلا بسبب الانتقامات؟!

أخرج الإمام أحمد في "الزهد" رقم (١٦٣٨)، ووكيع في "الزهد" رقم (١٩٧) بسند صحيح، عن الحسن البصري أنه كان يقول: «والله لتصبرن أو لتهلكن هو، والله الشديد الهلكة».

فتوطين النفس على الصبر في هذه الحال لا يوفق له إلا الصديقون، أتباع الرسل وخلفاء الأنبياء، وهو وصية السلف للخلف.

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «تعودوا الصبر؛ فأوشك أن ينزل بكم البلاء». أخرجه البزار في "مسنده" (٣٢٢/٧)، والمحاملي في "الأمالي" (٣٠٨/١)، والبيهقي في "الشعب" (١٩٦/١٢)، وأبو عثمان الداني في "السنن الواردة" (٢١٤/١)، وأبو يعلى كما في "المطالب العالية" (٣٥٢/١٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢٨٣/١)، وسنده صالح للتحسين.

وأخرج ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٤٤) عن صفوان بن عمرو أن أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من لا يعد صبرًا لفواجع الأمور يعجز». وهو حسن إلى صفوان، وأخرج ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٦٤) بإسناد صالح للتحسين عن عمر بن ذر، وهو من التابعين أنه قال: «من أجمع على الصبر في الأمور فقد حوى الخير، والتمس معاقل البر وكمال الأجور». فألله ألله في توطين النفس على هذا الصبر ما أمكن!!

٦) **على هذا المجني عليه أن يرحم نفسه ويرحم الجاني ويرحم الناس، قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى"** (٤٧/١٠): «المؤمن المحمود هو الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس».

٧) **أن يتذكر العبد الثواب الذي أعده الله لمن عفى وأصلح**، قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الشورى: ٤٠].

٨) **أن يعلم أنه إذا عفى دخل فيمن أثنى الله عليهم** بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٤]، وفيمن قال فيهم:﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٦].

قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٨٥): «والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد؛ فإنه جميل يحب الجمال عفو يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم عليم يحب أهل العلم وتر يحب الوتر، قوي والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، صبور يحب الصابرين محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين. فإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف».

٩) **أنه يدحر الشيطان بالتصالح مع أخيه،** قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم!**». أخرجه مسلم رقم (٢٨١٢) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرج ابن المبارك في "الزهد" رقم (٦٢٢) عن أبي رزين قال: «جاء رجل إلى الفضيل بن غزوان فقال: إن فلانا يقع فيك! فقال: لأغيظن من أمره! يغفر الله لي وله! قيل: من أَمَره؟! قال الشيطان!». وسنده صحيح؛ فالانتصار على هذا العدو مطلوب منا جميعًا.

١٠) **أن يعلم أن العفو سبب لنيل عزة الله،** قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو، إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله!**». أخرجه مسلم رقم (٢٥٨٨). **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "قاعدة في الصبر"** ضمن "جامع المسائل" (١/١٧٠): «فالعز الحاصل له بالعفو أحب

إليه وأنفع له من العز الحاصل له بالانتقام، فإن هذا عِزٌّ في الظاهر وهو يورث في الباطن ذُلاً، والعفو ذل في الباطن وهو يورث العز باطناً وظاهراً».

١١) **أن يعلم أن الجزاء من جنس العمل**، فإن عفى عمن ظلمه عفى الله عنه، وإن من غفر غفر الله له، وإن من رحم رحمه الله؛ فهو فقير إلى هذه كلها وأمثالها. وقد أوضحت هذا في رسالتي: "**الله يعاملك كما تعامل عباده**".

١٢) **أن يعلم أن عفوه سبب لأن يعفو عنه آخرون من الناس يحتاج إلى عفوهم**، خصوصًا أقاربه.

١٣) **أن يعلم أنه إذا اشتغل بالانتقام ضاع عليه زمانه وتفرق عليه قلبه**، وفاته من الخير والمصالح ما لا يقدر على استدراكه. ولو نظر في هذا الذي فاته ربما كان أعظم من المصيبة التي أصيب بها، فإذا عفى فَرَّغَ قلبه لربه، وجمعه لمصالحه التي هي أنفع له من الانتقام.

١٤) **أن يعلم أن الانتقام للنفس ليس من هدي الرسول** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما انتقم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه قط!». **قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة في الصبر"** ضمن "جامع المسائل" (١/١٧١): «فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم ينتقم لنفسه مع أن أذاه أذى الله ويتعلق به حقوق الدِّين، ونفسه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها وأبعدها من كل خُلقٍ مذموم، وأحقها بكل خُلقٍ جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها. فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب؟! بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها».

١٥) **ما يقع على المسلم من خسارات فأجره على الله**، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة في الصبر" ضمن "جامع المسائل" (١/١٧١): «إن أوذي على ما فعله

لله أو على ما أُمر به من طاعته ونهى عنه من معصيته وجب عليه الصبر ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أوذي في الله، فأجره على الله؛ ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبت دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونة؛ فإن الله - تعالى - اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له على الله ثمن، فإنه من كان في الله تلفه كان على الله خلفه».

١٦) **أن يدع الظالم إلى ظلمه فإنه أضر به من انتقامه منه.**

أخرج عبد الله بن أحمد في "زوائد الزهد" رقم (٤٦٥) عن مسلم بن يسار أنه سمع رجلا يدعو على رجل ظلمه فقال له: «كِل الظالم إلى ظلمه؛ فإنه أسرع إليه من دعائك عليه، إلا أن يتداركه بعمل، وقمن أن لاَ يفعل».وسنده حسن.

١٧) **إذا ترك أخذ حقه من الظالم تسليمًا لله، فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا في الدنيا والآخرة،** فالدوائر تدور على الظالم إن كان يوم القيامة، فقد تواترت الأحاديث أن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإن كان في الدنيا فقد قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته!**». أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٦)، ومسلم رقم (٢٥٨٣)، عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال حكيم المحدثين أبو حازم النجار: «لا تعادين رجلاً ولا تناصبنه حتى تنظر إلى سريرته بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فإن تكن له سريرة حسنة فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يكن مخذله بعدائك له، وإن كانت له سريرة رديئة فقد كفاك مساوئه فلو أردت أن تعمل به أكثر من معاصي الله لم تقدر».

أخرجه الدينوري في "المجالسة" (٤٧٨/٣) رقم (١١٠٠).

١٨) **أن تحمل المكاره من شيم النفوس الكريمة، قال الإمام الماوردي في "أدب الدنيا والدين"** ص (٤٠٠): «قالت الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم». قلت: وعدم الانتقام من أعظم تحمل المكاره.

١٩) **أن الله مع المظلوم ناصر له في الدنيا والآخرة**، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنفال: ٤٦]. ومن انتصر لنفسه، وكَلَهُ الله إلى نفسه فكم الفرق بين شخص ينصره الله وهو خير الناصرين، وشخص وكله الله إلى نفسه، وهو أعجز خلق الله وأضعفهم.

٢٠) **أن من اعتاد الانتقام لا بد أن يقع في الظلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة في الصبر" ضمن "جامع المسائل"** (١٧٣/١): «إن من اعتاد الانتقام ولم يصبر، لابد أن يقع في الظلم؛ فإن النفس لا تقتصر على قدر العدل الواجب لها، لا علما، ولا إرادة، وربما عجزت عن الاقتصار على قدر الحق، فإن الغضب يخرج بصاحبه إلى حد لا يعقل ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلوم ينتظر النصر والعز، إذ انقلب ظالماً ينتظر المقت والعقوبة».

٢١) **أن انتقامه قد يكون سببًا لزيادة شر خصمه عليه** إما بالحق أو بالمكر أو بغير ذلك، فإذا عفى وصبر أمن من هذا الضرر.

٢٢) **أن الانتقام قد يؤدي إلى شرور يعجز المنتقم عن دفعها**؛ فربما ذهبت أنفس وأخذت أموال وانتهكت أعراض، وهذا حاصل ومعلوم.

٢٣) **أن صبره على خصمه من أعظم الجند له عليه**، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة في الصبر" ضمن جامع المسائل (١٧٣/١-١٧٤): «إن عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه؛ فإن من صبر وعفا كان صبره وعفوه موجباً لذل عدوه، وخوفه وخشيته منه، ومن الناس، فإن الناس لا يسكتون عن خصمه وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كله، ولهذا تجد كثيراً من الناس إذا شتم غيره أو آذاه يحب أن يستوفي منه، فإذا قابله استراح وألقى عنه ثقلاً كان يجده».

٢٤) **إذا صبر على خصمه بقيت حالة خصمه شاعرة بالذنب يكبله الإثم،** وهذا يدفعه في يوم من الأيام إلى بذل حق غيره رغبة ورهبة.

٢٥) **إذا صبر على خصمه كان هذا من أسباب توبة الخصم إلى الله من ظلم العباد.**

٢٦) **إذا صبر على من ظلمه وهدده بأنه يريد حقه يوم القيامة بحكم الله لا بحكم أحد من الناس،** فهذا من أعظم أسباب بذل الحق لصاحبه عاجلاً.

٢٧) **أن المظلوم إذا صبر ورضي بأن يعطى له من حسنات الظالم أو يتحمل الظالم من سيئاته،** كان هذا أنفع له في ذلك اليوم العصيب. وهذه المسألة قد طرقتها في رسالتي: "الله يعاملك كما تعامل عباده".

تنبيه: قال العلامة ابن عثيمين في "شرح رياض الصالحين" (٦١٢/٣): «فالواجب الصبر على الأذى في ذات الله عَزَّوَجَلَّ.

وأما الأذى فيما يتعلق بأمور الدنيا ومعاملة الناس؛ فأنت بالخيار إن شئت فاصبر، وإن شئت فخذ بحقك، والصبر أفضل، إلا إذا كان في الصبر عدوان واستمرار في العدوان، فالأخذ بحقك أولى».

والشاهد من كلامه «وإذا كان في الصبر عدوان...» فكلامه هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الفقه العظيم!

فائدة: قال العلامة ابن عثيمين في "شرح رياض الصالحين" (٤٩٠/٢): «فإذا دعا المظلوم على ظالمه في الدنيا واستجيب لدعائه فقد اقتصّ منه في الدنيا، أما إذا سكت فلم يدع عليه ولم يعف عنه فإنه يقتصّ له منه يوم القيامة».

صبر الصديقين حتى نالوا درجة الإمامة في الدين:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في"مجموع الفتاوى" (٣٥٨/٣): «بالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين».

وقال العلامة ابن القيم في"إعلام الموقعين عن رب العالمين" (١٣٥/٤): «فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم من بعدهم لصبرهم ويقينهم؛ إذ بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة، وكف النفس عما يوهن عزمه ويضعف إرادته، فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة الذين يهدون بأمره تعالى».

قلت: ومن يصلح للإمامة في الدين إلا العلماء الربانيون أهل الاتباع وحملة الشريعة وحراس الملة، أمناء الله في أرضه على دينه وعباده.

اللّٰهُمَّ اجعلنا منهم ومعهم، يا رب العالمين!

صبر الصديقين في مجال العلم الشرعي:

تلقي العلم الشرعي والمثابرة عليه هو الجهاد الأكبر، قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[الفرقان: ٥٢]، أي: بالقرآن.

وحاجتنا هنا إلى ذكر ما تيسر من أقوال أهل العلم في الصبر على أخذ العلم من أهله وأربابه:

أخرج أبو نعيم في "الحلية" (٣٦٦/٣)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٤٩٨/١) رقم (٧٩٥) بإسناد صحيح، عن ابن شهاب أنه قال: «ما صبر أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري!».

وقال ابن المديني: «قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كله؟! قال: بنفي الاعتماد والسير في البلاد وصبر كصبر الحمار وبكور كبكور الغراب!». "سير أعلام النبلاء" (٣٠٠/٤).

وقيل لبزر جمهر: «بم أدركت ما أدركت؟! قال: ببكور كبكور الغراب وصبر كصبر الحمار». "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب" ص(٣٧١) للثعالبي.

ولله در من قال:

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على

وقال يحي بن أبي كثير كما في "صحيح مسلم" رقم (٦١١): «لا يستطاع العلم براحة الجسم».

وقال الجنيد بن محمد: «باب كل علم نفيس جليل مفتاحه بذل المجهود». "الجامع لأخلاق الراوي" (١٨٠/٢).

وقال الإمام الشافعي كما في "الفقيه والمتفقه" (٢٠٤/٢): «والناس طبقات في العلم، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم فيه ، فحق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في إدراك علمه نصا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه؛ فإنه لا يدرك خير إلا بعونه».

وقال أيضًا: «لا يدرك العلم إلا بالصبر على الضُّرِّ». أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١٨٦/٢) بإسناد صحيح.

وقد ذكر في الديوان المنسوب للإمام الشافعي أنه قال:

اصبر على مر الجفا من معلم ... فإن رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة ... تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبر عليه أربعًا لوفاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

وقال العلامة السعدي في "الرياض الناضرة" ص (١٩٣): «أليس التعلم والتعليم والصبر على ذلك من أكبر الجهاد؟!».

قلت: الحاجة كبيرة جدًا إلى الصبر في طلب العلم الشرعي، خصوصًا في حق من يريد أن يبرز فيه؛ فإن هذا الصنف يحتاج إلى مزيد من المصابرة وليس من الصبر فقط، خصوصًا إذا دب فيهم الفتور والملل، فإذا دب هذا صار الإنفاق من الأنفاس، وأما إذا أعطي الطالب رغبة جياشة في طلب العلم فهذا لا يشق عليه أمر الصبر للهمة العالية والعزيمة القوية والنهمة العارمة، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**منهومان لا يشبعان: منهوم في علم ومنهم في دنيا لا يشبع!**».

أخرجه الحاكم (٩١/١-٩٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وخرَّجه شيخنا الوادعي في "الصحيح المسند" (رقم/٥١).

فالصديقون يؤاثرون طلب العلم فينفقون عليه من راحتهم في المأكل والمشرب والمنكح والمركب والملبس وغير ذلك؛ لينالوه وهم بهذا الإنفاق مطمئنون وفرحون، يجدون لذة أعظم من لذة الملوك.

صبر الصديقين في الرحلة في طلب العلم سابقًا ولاحقًا:

سبق أن ذكرنا نبذة عن طلب العلم الشرعي عمومًا، وهاهنا أذكر الرحلة فيه: هذه الرحلة سنها من سنها من أنبياء الله ورسله، وأشهر من رحل في هذا المضمار كليم الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أحد أولي العزم من الرسل.

ولشرف هذه الرحلة وعظمتها ذكرها الله في كتابه ورسوله في سنته، موضحًا، لها فكفى بذكرها دعوة إلهية وتشريعًا ربانيًا للرحلة في أمة الإسلام، ولاتباع سيد الأنام.

وقد أحب هذه الرحلة السلف الصالح، دل على هذا رحلاتهم الواسعة وأشعارهم فيها النافعة، حتى إنه لم يرحل بعدهم كما رحلوا، ولم يتحقق فيمن رحلوا بعدهم ما تحقق لهم ولم يُمَكَّن لهم كما مُكِّنَ لهم، ولا يزال الله يقيض لهذه الرحلة رجالًا بعد رجال! ففي عصرنا هذا تجددت الرحلة في طلب العلم الشرعي على يد كثير من أبناء المسلمين من أقطار الأرض إلى أماكن شتى من منابع العلم الشرعي، وعلى وجه الخصوص الرحلة إلى دور الحديث في اليمن. وقد كانت هذه الرحلة إلى هذه الدور من أبرك الرحلات، وأنفعها في العصر الحاضر، وقد انتشر بسببها العلم الشرعي، وظهرت السنة أكثر، وانقمعت البدعة أعظم، وقام التوحيد قيام الجبال، وتهاوت الشركيات واجتثت، والحمد لله!

والرحلة المذكورة مبنية على الصبر العظيم، بل الصبر في هذه الرحلة أعظم ظهورًا وأبرز منهجًا وأكثر تحملاً، فأهنئ طلاب العلم الوافدين إلى دور الحديث، حرسها الله!.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم

فيم أنزلت! ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه» أخرجه البخاري رقم (٥٠٠٢)، ومسلم رقم (٢٤٦٢).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فابتعت بعيرًا فشددت إليه رحلي شهرًا حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فبعثت إليه أن جابرًا بالباب فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج فاعتنقني. قلت: حديث بلغني لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت. قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**يحشر الله العباد - أو الناس- عراة غرلًا بُهمًا**» قلنا: ما بُهمًا؟ قال: «**ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه من بعد - أحسبه قال كما يسمعه من قرب - أنا الملك لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة**» قلت: وكيف وإنما نأتي الله عراة بهمًا؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**».

أخرجه البخاري تعليقًا مجزومًا به في (كتاب: العلم. باب: الخروج في طلب العلم)، وأخرجه موصولاً في "خلق أفعال العباد"ص (٩٨)، وفي "الأدب المفرد" رقم (٩٧٠)، وأحمد (٤٩٥/٣)، والحاكم (٤٣٧/٢) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح" ١/ ١٧٤: إسناده صالح. وحسنه الألباني في "صحيح الأدب المفرد" رقم (٧٤٦).

وعن عبد الله بن بريدة: أن رجلاً من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحلَ إلى فَضَالَة بن عُبيد وهو بمصر، فقدمَ عليه، فقال: أما إني لم آتِكَ زائرًا، ولكن سمعتُ أنا وأنتَ حديثًا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجوتُ أن يكون عندك منه علم...». أخرجه الدارمي (٤٦٨/١)، والخطيب في "الرحلة" رقم (٣٩)، وسنده صحيح.

وعدَّد الحافظ في "فتح الباري" (١/ ٢١٠) أمثلة ثم قال: «وتتبُّع ذلك يكثُر».

وقال سعيد بن المسيب: «إن كنت لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد». أخرجه الفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٤٦٨/١)، والخطيب في "الرحلة في طلب الحديث" رقم (٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤). والرامهرمزي في "المحدث الفاصل" ص (٢٢٣)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله"رقم (٥٦٩، ٥٧٠)، والأثر حسن.

وعن ابن إسحاق، قال: سمعت مكحولاً يقول: «طفت الأرض كلها في طلب العلم». أخرجه البخاري في "التاريخ" (٥١١/٣) بإسناد حسن.

وعن بسر بن عبيد الله الحضرمي، قال: «إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه». أخرجه الدارمي رقم (٥٨٢)، والخطيب في "الرحلة في طلب الحديث" رقم (٥٧)، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" رقم (٥٧٦) بإسناد صحيح.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم في " الجرح والتعديل" (٢٦٤/١): سمعت أبي يقول: «طاف ابن المبارك ربع الدنيا بالرحلة في طلب الحديث لم يدع اليمن ولا مصر ولا الشام ولا الجزيرة ولا البصرة ولا الكوفة»..

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم في "مقدمة الجرح والتعديل" ص (٣٥٨-٣٥٩): سمعت أبي يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ: لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيا ومن مصر إلى الرملة ماشيًا ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان ومن الرملة إلى طبرية ومن طبرية إلى دمشق ومن دمشق إلى حمص ومن حمص إلى أنطاكية ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي علي شيء من حديث أبي اليمان

فسمعت، ثم خرجت من حمص إلى بيسان ومن بيسان إلى الرقة ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيًا، كل هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ثلاث عشرة ومائتين، قدمنا الكوفة في شهر رمضان سنة ثلاث عشرة ورجعت سنة إحدى وعشرين ومائتين، وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين ورجعت سنة خمس وأربعين أقمت ثلاث سنين».

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم الأصبهاني: «طفت الشرق والغرب أربع مرات». "تاريخ الإسلام" للذهبي (٣٩/٢٧).

وقال أبو إسحاق بن حمزة عن أبيه قال: قال لي يعقوب بن سفيان: «قمت في الرحلة ثلاثين سنة». "تهذيب التهذيب" (٣٨٧/١١).

وقال الحاكم سمعت غير واحد من مشايخنا يذكرون عن الحافظ محمد بن المسيب الإرغياني أنه قال: «ما أعلم منبرًا من منابر الإسلام بقي علي لم أدخله لسماع الحديث». أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣٩٧/٥٥). بإسناد صحيح.

وقال المحدث أسلم بن سليمان: لما رحل من (نيسابور) إلى (مرو) ليكتب عن الإمام ابن المبارك أبيات شعرية أنشدها بين يدي ابن المبارك، ذكرها الحافظ ابن أبي حاتم في مقدمة "الجرح والتعديل" ص (٢٧٥)، وهي:

خلفت عرسي يوم السير باكية ... يا ابن المبارك تبكيني برنات

خلفتها سحرا في النوم لم أرها ... ففي فؤادي منها شبه كيات

أهلي وعرسي وصبياني رفضتهمُ ... وسرت نحوك في تلك المفازات

أخاف والله قطاع الطريق بها ... وما أمنت بها من لدغ حيات

مستوفزات بها رقش مشوهة أخاف صولتها في كل ساعاتي
اجلس لنا كل يوم ساعة بكرا إن خَفَّ ذاك وإلا بالعشيات
يا أهل مرو أعينونا بكفكم عنا وإلا رميناكم بأبيات
لا تضجرونا فإنا معشر صبر وليس نرجو سوى رب السموات

ويقول ابن خلدون في"مقدمة تاريخه" ص (٥٤١): «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسبب في ذلك: أنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة، إلَّا أنَّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها .. فالرحلة لا بدَّ منها في طلب العلم؛ لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال».

صبر الصديقين على من يخالفهم في مسائل اجتهادية:

الكلام في هذه المسألة على ما يحصل من قيام بعض الأشخاص بخلاف يثير الفتن فيه، مع أنه في مسائل اجتهادية، الاجتهاد فيها معتبر في الشريعة ومعتبر عند أهل العلم الراسخين في معرفة أحكامها. والذين يثيرون هذا الخلاف يصل بهم الحال إلى المخاصمة والتبديع، والتفسيق، والتحزيب، وربما التكفير، وبسبب هذا يحصل البغي والطغيان، وطغيان العلم أشد من طغيان المال؛ ويحصل التفرق بعد الاجتماع والاختلاف بعد الائتلاف، والضعف بعد القوة، والهزيمة بعد الانتصار، والانحسار بعد الانتشار، وغير ذلك من المفاسد والأضرار.

ولا علاج لهذه الفتنة أعظم من الصبر المحمود، وهذا الصبر سهل على من عود نفسه ذلك. وقد تقدمت الآثار الصحيحة في هذا، ومنها: «الصبر معول المؤمن».

وقال المرداوي في "الإشارة في تدبير الإمارة" ص (١٢٤): «عوِّد نفسك الصبر على من يخالفك من رأي أهل الصنيعة والتجرع بمرارة قولهم، ولا تسهِّل سبيل ذلك إلا لأهل العقل والفضل والمروءة والستر، فإنك إن سهلت ذلك لغيرهم تجرأ عليك السفيه، واستخفَّ بك النذل».

وقد أوضحت هذه المسألة إيضاحًا شافيًا كافيًا في كتابي: "الإبانة". الفصل الثالث.

فألله ألله أن تطرق لشياطين الجن والإنس طريقًا إليك وإلى إخوانك أهل السنة والجماعة، فكن عقبة كئود أمام من يريد الإضرار بأهل السنة، ولو ظلمت من قِبَل بعض أفرادهم، من بغي وغير ذلك، فاصبر وتبصر واستعمل الحكمة في إصلاح الأمور، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

صبر الصِّديقين في مجال الدعوة إلى الله:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فصلت: ٣٤ - ٣٥].

قال العلامة ابن عطية في "تفسيره" (٣٤١/١١) عند آية القصص، وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾[القصص:٨٠]: «ثم أخبر تعالى عن هذه النزعة وهذه القوة في الخير والدين أنها لا يلقاها، أي: يُمَكَّنَ فيها ويُخولَّها إلا الصابر على طاعة الله وعن شهوات نفسه، وهذا هو جماع الخير كله».

وقال أيضًا في المصدر نفسه (١١٤/١٣) عند آية[فصلت: ٣٤ - ٣٥]: «مدح بليغ للصبر، وذلك بين للمتأمل؛ لأن الصبر للطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها».

وقال العلامة ابن عاشور في "تفسيره" (١٨٥/٢٠)[القصص:٨٠]: «أي: لا يعطى تلك الخصلة أو السيرة إلا الصابرون؛ لأن الصبر وسيلة لنوال الأمور العظيمة؛ لاحتياج السعي لها إلى تجلد؛ لما يعرض في خلاله من مصاعب وعقبات كأداء».

وقال أيضًا في المصدر نفسه (٢٩٥/٢٤): «إن التخلق بالصبر شرط في الاضطلاع بفضيلة دفع السيئة بالتي هي أحسن، وأنه ليس وحده شرطا فيها، بل وراءه شروط أخر يجمعها قوله: حظ عظيم، أي: من الأخلاق الفاضلة، والصبر من جملة الحظ العظيم؛ لأن الحظ العظيم أعم من الصبر، وإنما خص الصبر بالذكر لأنه أصلها ورأس أمرها وعمودها».

وقال العلامة ابن عثيمين في "تفسيره" (٣٢٧/٩) عند آية[فصلت: ٣٤ - ٣٥]: «لا ينال أحد هذه الخصلة وهي الدفع بالتي هي أحسن إلا الذين صبروا...وذلك لأن الأمر شديد إذْ إن النفوس تحب الانتقام ممن أساء إليها، ولكن قال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾. كل إنسان سوف يعاني معاناة شديدة إذا سلك هذا الطريق، وهي: الدفاع بالتي هي أحسن، لا بد أن يجد عناء ومشقة، فأثنى الله على الصابرين على ذلك».

قلت: تبليغ الدعوة إلى الله وظيفة الأنبياء والرسل، وهي أجلّ وظائفهم وأعلى مناصبهم.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" ص (٤٩٢-٤٩٣): «فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر

رسوله أن يُبَلِّغ ما أنزل إليه وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له. وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثا. وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم؛ جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه!».

قلت: والدعاة إلى الله إذا جمعوا بين ثلاثة أمور فقد تمت عليهم النعمة: الصبر، والتواضع، وحسن الخلق. فليجاهدوا أنفسهم في الاتصاف بهذه الثلاث؛ فبالصبر يتحمل الناس، وبالتواضع يسهل عليه أن يوصل إليهم الخير، وبالخلق الحسن يقتدون به ويحبونه ويرغبون في دعوته ويتنافسون في خدمته.

صبر الصِّديقين في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

من المعلوم أن من أعظم فضائل الصِّديقين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكما هو معلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يدوم قيامه ويتحقق نفعه إلا بالصبر، وهو توطين النفس عليه قبل ذلك، وتوطين النفس عليه عند القيام بذلك وتوطين النفس عليه بعد ذلك، وتوطين النفس على الصبر فيما لا يقدر عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالحاجة كبيرة إلى الصبر في المراحل الثلاث، وتعظم الحاجة إليه أكبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يظهر له في الغالب مناوئون معادون، وقد تؤدي تلك المناوأة إلى سجنه أو تشريده أو قتله أو غير ذلك فلا داء له هنا أعظم من الصبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ص (٥٦) بعد أن ذكر الآيات من أول سورة المدثر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ [المدثر: ٧]: «فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار، وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر؛ فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر».

قلت: كيف لا يحتاج الصديقون إلى عموم هذا الصبر وطريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محفوف بالمكاره ومليء بالمخاوف ومفروش بالأشواك، ألا ترى أن من قام بهذا ثقل على القلوب النافرة وإن كان خفيفًا، وسمج في العيون وإن كان لطيفا، ورمي بالكذب وإن كان صادقا، وساءت فيه الظنون وإن كان عفيفا، ورمي بالجهل وإن كان عالما، وقُصد بالأذى وهو من النجباء وكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه، وألقي في مهاوي الردى وأُعملت الفكر في كيفية الخلاص منه والراحة من مشاهدته، بل في قتله واستئصال شأفته، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

ومما يعين الصديقين على النجاح في هذه المهمة المدلهمة والوظيفة النفيسة والفضيلة الجميلة: الأخذ بالضوابط التي أرشد إليها السلف وأئمة الخلف:

عن أبي جعفر الخطمي، أن جده عميرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوصى بنيه فقال: «إذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى ويثق بالثواب من الله؛ فإن من وثق بالثواب لم يجد مس الأذى». أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٢٣٥/٥)، وابن أبي الدنيا في "الحلم" رقم (١٧)، وأحمد في "الزهد" رقم (١٠٣٨)، وإسناده حسن.

وقال بشر الحافي: «لا ينبغي أن يأمر، بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من يصبر على الأذى». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣٣٧/٨)، بسند جيد.

وقال سفيان الثوري: «لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى». أخرجه الخلال في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" رقم (٣٢)، وهو أثر صحيح.

وقال الإمام المقدسي في "مختصر منهاج القاصدين" ص (١٢٩): قال بعض السلف: «لا يأمر بالمعروف، إلا رفيق بما يأمر به، رفيق بما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ص (٥٧): «فلا بد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحبًا في هذه الأحوال».

قلت: يا أهل السنة وحماة الإسلام وحملة سنة سيد الأنام إلى عباد الله من رعاة حكام، وصغار وأعلام، ترفقوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن كان ولا بد من خشونة في حق بعض الأشخاص فلا تصل أبدًا إلى استخدام السلاح ونصب القتال.

قال إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح، فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان». ذكره الإمام النووي في "شرح صحيح مسلم" (٣٢/٢).

قلت: قد يبتلي الله من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بعصابة سوء تلحق الضرر به وربما بإخوانه لتعظم الفتنة، فإن حصل هذا فليكن الصبر هو الدرع

الواقي والقوة المقوية على السداد والرشاد، ومع بذل أسباب كف المعتدي بالطرق الشرعية السلمية. والحذر ثم الحذر من الانجرار وراء الفتن.

صبر الصديقين على جور الحكام:

أخرج البخاري رقم (٧٤٤١) ومسلم رقم (١٠٥٩): عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنكم ستجدون أثرة شديدة؛ فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإني على الحوض!**» قالوا: سنصبر.

وعن الزبير بن عدي، قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: «**اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**». سمعته من نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أخرجه البخاري رقم (٧٠٦٨).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**من كره من أميره شيئا فليصبر؛ فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية!**». أخرجه البخاري رقم (٧٠٥٣)، ومسلم رقم (١٨٤٩).

وعن سويد بن غفلة، قال: قال لي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لعلك تبقى حتى تدرك الفتنة، فاسمع وأطع، وإن كان عليك عبد حبشي، إن ضربك فاصبر، أو حرمك، أو ظلمك فاصبر، وإن أرادك على أمر ينقصك في دينك فقل: سمعا وطاعة، دمي دون ديني!».أخرجه نعيم في "الفتن" (٣٨٨)، واللفظ له، وابن أبي شيبة رقم (٥٤٤/٦) رقم (٣٣٧١١)، والآجري في "الشريعة" رقم (٧٤)، وأبو عمرو الداني في "السنن الواردة في الفتن" رقم (١٤٣)، والبيهقي في "السنن" (١٥٩/٨)، وسنده صحيح.

وقال ابن عمر حين أتته بيعة يزيد: «إن كان خيرا رضينا، وإن كان بلاء صبرنا» أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٦٨). بسند صحيح.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «إياكم ولعن الولاة؛ فإن لعنهم الحالقة، وبغضهم العاقرة! قيل: يا أبا الدرداء، فكيف نصنع إذا رأينا منهم ما لا نحب؟

قال: اصبروا؛ فإن الله إذا رأى ذلك منهم حبسهم عنكم بالموت». أخرجه ابن أبي عاصم "السنة" رقم (١٠١٦)، وإسناده حسن.

قلت: هذه الأدلة وأمثالها بنى عليها أهل السنة والجماعة أصلين عظيمين:

الأول: عدم الخروج على الحاكم المسلم، ولو جار.

الثاني: ترك القتال في الفتنة.

والأصل الأول قد استقر الإجماع عليه عند أهل السنة، وقد نقلت هذا الإجماع في كتابي: "تمام المنة في فقه قتال الفتنة". ص (٢٢٥-٢٢٦).

والأصل الثاني قد أوضحته في كتابي "**إتحاف أهل السنة بإيضاح أصل ترك القتال في الفتنة**" .

فهذان الأصلان مما تميز بهما أهل السنة والجماعة على مر العصور على غيرهم من أهل البدع والتحزب. وما يحصل من بعض من هو محسوب على أهل السنة من مشاركة في الثورات والانقلابات وإنشاء الجبهات الحزبية والقتالية، فهؤلاء لا يمثلون إلا أنفسهم فقط ولا يمثلون أهل السنة، وعلى أهل السنة أن يتبرأوا من هذه الأفعال، وأن يظهروا تباعدهم عنها.

وإني لأقول لأهل السنة: لا أضر عليكم من أشخاص في أوساطكم باسمكم يسعون جاهدين إلى إقحامكم في هذه المهالك وسيعملون الإرجافات تارة وعرض القوة تارة. فلا نجاة من هذه الاغتيالات إلا بصدق الاتباع وتحقيق الإخلاص لله والصبر على هؤلاء المثيرين والرجوع إلى علماء السنة والحديث الراسخين في العلم، العارفين بمكر الأحزاب وكيد الدول بهم وبدعوتهم، والصدور عن توجيهاتهم.

وإني لأحمد الله الذي لا إله سواه ولا رب غيره على السلامة التي منحنا إياها وأكرمنا بها؛ فقد تفجرت فتنة الخروج الثوري، والقتل والقتال على الملك في

بلادنا اليمنية من عام (١٤٣٢)هـإلى عام (١٤٣٦) هـوعمت وطمت ولا تزال، ولم نقبل أي مشاركة فيها لا بالانحياز في الكلام إلى جهة معينة، ولا بأخذ السلاح ولا بفتوى ولا بأخذ أموال ولا بغير ذلك، فله الحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا؛ فهو نعم المولى ونعم النصير.

وهؤلاء الذين خرجوا على الحكام أهلكوا الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد؛ هذا لعدم صبرهم وتقواهم، فلا دنيا أقاموا ولا دينًا أبقوا:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة النبوية" (٤/٥٤٠): «وكثير ممن خرج على ولاة الأمور أو أكثرهم إنما خرج لينازعهم مع استئثارهم عليه، ولم يصبروا على الاستئثار».

قلت: أيضًا لم يصبروا على ما لا يقدرون على تغييره من المنكر.

عن سليمان بن علي الربعي قال: «لما كانت الفتنة فتنة ابن الأشعث إذ قاتل الحجاج بن يوسف انطلق عقبة بن عبد الغافر وأبو الحوراء وعبد الله بن غالب في نفر من نظرائهم، فدخلوا على الحسن فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقول في قتال هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام وترك الصلاة وفعل وفعل؟! قال: وذكروا من أفعال الحجاج، فقال الحسن: أرى أن لا تقاتلوه؛ فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم، وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين! فخرجوا من عنده وهم يقولون: نطيع هذا العلج! قال: وهم قوم عرب. قال: وخرجوا مع ابن الأشعث، قال: فقتلوا جميعًا!».

أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٢/١٧٧-١٧٨)، وسنده حسن.

وعن سعيد بن عبد العزيز قال: «إذا رأيت أمرًا لا تستطيع غيره، فاصبر وانتظر فرج الله». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه"رقم (٨٧)، وهو أثر صحيح.

صبر الصديقين في ساحة الجهاد في سبيل الله:

قال الله تعالى مخبرًا عن طالوت وجنوده: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾[البقرة: ٢٤٩ – ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٦].

وخير من قاموا بالجهاد بعد الأنبياء والرسل هم صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعهم بإحسان، وقد كان الصبر عندهم تاج النصر.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[الأنفال: ٤٥ - ٤٦].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في "الفروسية المحمدية"** ص (٤٧٢-٤٧٣): فأمر المجاهدين [فيها] بخمسة أشياء، ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت، وإن **قلت**: وكثر عدوها:

أحدها: الثبات.

الثاني: كثرة ذكره سبحانه وتعالى.

الثالث: طاعته وطاعة رسوله.

الرابع: اتفاق الكلمة ...

الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو: الصبر.

فهذه خمسة أشياء تبتنى عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضًا، وصار لها أثر عظيم في النصر ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم وفتحوا الدنيا ودانت لهم العباد والبلاد، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل».

تنبيه: حذار حذار من تمني لقاء العدو؛ فقد روى البخاري رقم (٢٩٦٥)، واللفظ له، ومسلم رقم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «**يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، فسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف!**».

قال العلامة ابن الجوزي في "كشف المشكل من أحاديث الصحيحين" (٥١١/٢): «اعلم أن تمني لقاء العدو يتضمن أمرين: أحدهما: استدعاء البلاء. والثاني: ادعاء الصبر. وما يدري الإنسان كيف يكون صبره على البلاء. والمدعي متوكل على قوته، معرض بدعواه عن ملاحظة الأقدار وتصرفها، ومن كان كذلك وُكِلَ إلى دعواه، كما تمنى الذي فاتتهم غزاة بدر فلم يثبتوا يوم أحد، وكما أعجبتهم كثرتهم يوم حنين فهزموا!

وقد نبه هذا الحديث على أنه لا ينبغي لأحد أن يتمنى البلاء بحال، وقد قال بعض السلف: كنت أسأل الله الغزو، فهتف بي هاتف: إنك إن غزوت أسرت، وإن أسرت تنصرت».

صبر الصديقين في تقديم النفس فداء للإسلام والمسلمين:

الجود الأعظم والبذل الأكبر: أن يُقدِّم المسلم نفسه فداء لدينه. وهذا التقديم يسهل جدًا في معركة الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وهذا التقديم معلوم. وأذكر تقديمًا آخر، ألا وهو تقديم النفس لإظهار الحق إذا تظافرت أسبابه.

وما قصة الغلام والساحر والراهب عنا ببعيدة، وهي قصة جديرة بقراءتها وأخذ الدروس منها؛ فدونك إياها:

عن صهيب، أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَقال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت؛ فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر. فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل؟! فأخذ حجرا، فقال: اللّٰهُمَّ إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة؛ حتى يمضي الناس! فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي! وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع، إن أنت شفيتني! فقال: إني لا أشفي أحدًا؛ إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك! فآمن بالله**

فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟! قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي وربك الله!! فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟! فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمئشار[١]، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه! فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللَّهُمَّ اكفنيهم بما شئت! فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟! قال: كفانيهم الله! فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور[٢]، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به، فقال: اللَّهُمَّ اكفنيهم بما شئت! فانكفأت[٣] بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟! قال: كفانيهم الله! فقال

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٠٢/١٨): «والمئشار، مهموز في رواية الأكثرين. ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياءً. وروي (المنشار) بالنون، وهما لغتان صحيحتان».

(٢) القرقور: السفينة الصغيرة.

(٣) انكفأت بهم: انقلبت بهم.

للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام! ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني! فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام! ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟! قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس!! فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها! أو قيل له: اقتحم. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري؛ فإنك على الحق!». أخرجه مسلم رقم (٣٠٠٥).

قال القاضي عياض في "إكمال المعلم" (٨/٥٥٧-٥٥٨): «وفى هذا الحديث صبر الصالحين على الابتلاء في ذات الله، وما يلزمهم من إظهار دينه والدعاء لتوحيده ، واستقتالهم أنفسهم فى ذلك، وهو مراد الغلام بقوله للملك: «لست بقاتلى حتى تصلبنى وتجمع الناس وتضع السهم فى كبد القوس وتقول: باسم الله رب الغلام! ليرى الناس ذلك فيؤمنوا بالله كما كان، وفيه إثبات كرامات الأولياء وإجابة دعواتهم باختبارهم كما أظهر الله فى قصة هذا الغلام ، وكفاية الله له من تلك المهالك».

قلت: فهذا الغلام المبارك تسلح بالصبر والحكمة وقوة الصلة بالله فانتفع بصبره أيما انتفاع ونجح بحكمته أكبر نجاح، ونُصر بدعائه نصرًا مؤزرا! فالدعاة

إلى الله إن تزودوا بما تزود به هذا الغلام، فليبشروا ببقاء دعوتهم وعلو أمرهم وانتشار ذكرهم، إن شاء الله تعالى.

ولهذا أكد رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن دعوته ودعوة أتباعه وخلفائه لا يتم قيامها ولا يدوم بقاؤها ولا يُمَكَّن لأهلها ولا يُستخلف حملتها في الأرض، إلا بالصبر الذي صبره الصابرون قبلهم، والثبات الذي صار عليه أسلافهم.

فعن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟! قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه!! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه!! والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!**». أخرجه البخاري رقم (٣٦١٢).

صبر الصديقين عند الموت:

صبر الصديقين عند الموت واسع، وبه يتحقق لهم النجاة من البلاء العظيم.

قال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" ص (١٧٧): «ولا بد من لقاء البلاء، ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت؛ فإنها إن نزلت -والعياذ بالله- فلم تجد معرفة توجب الرضا أو الصبر، أخرجت إلى الكفر».

وأخرج ابن أبي الدنيا في "المحتضرين" رقم (١٣٢)، وأبو العرب في "المحن" ص (١٤٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣٨/٢) بسند صحيح إلى عمير بن إسحاق، قال: دخلت أنا ورجل على الحسن بن علي نعوده فقال: يا فلان، سلني! قال: لا والله لا نسألك حتى يعافيك الله ثم نسألك! قال: ثم دخل ثم خرج إلينا فقال: سلني قبل

أن لا تسألني فقال: بل يعافيك الله ثم أسألك قال: لقد ألقيت طائفة من كبدي، وإني سقيت السم مرارا فلم أسق مثل هذه المرة! ثم دخلت عليه من الغد وهو يجود بنفسه والحسين عند رأسه وقال: يا أخي، من تتهم؟ قال: لم لتقتله؟ قال: نعم قال: إن يكن الذي أظن فالله أشد بأسًا وأشد تنكيلاً، وإلا يكن فما أحب أن يقتل بي بريء».

ومن هذا الصبر: صبر عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عملاً بوصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، قال عثمان: «إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد إلي عهدًا؛ فأنا صائر إليه»، وفي لفظ: «وأنا صابر عليه!». قال قيس: فكانوا يرونه ذلك اليوم!». أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٨/١)، والترمذي رقم (٣٧١١)، وابن ماجه رقم (١١٣)، وسنده صحيح.

قال الإمام الآجري في "الشريعة" (١٩٨٣/٤) وهو يتحدث عن صبر عثمان حتى قتل مظلومًا: «فكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا الفعل موفقًا معذورًا رشيدًا».

وقد نقلت إجماع العلماء على أن من عمل بالعزيمة فصبر حتى قتل من أجل الإسلام، أفضل ممن أكره على الكفر فعمل بالرخصة، في كتابي: "إجماعات المفسرين" عند الآية رقم (٢٨) من سورة آل عمران.

ومما يُحتاج إليه من الصبر عند الموت: الصبر على الشيطان؛ فإنه يشتد على المؤمن عند الموت أعظم منه قبل ذلك:

أخرج ابن المبارك في "الزهد" رقم (٢٩٣) عن عطاء بن يسار قال: «تبدى إبليس لرجل عند الموت، فقال: نجوت مني! قال: ما أمنتك بعد!». وهو صحيح الإسناد.

وأخرج أحمد (٢٠/٣) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث الذي قتل مائة نفس، وفيه: «**فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، قال: فقال إبليس: أنا أولى به؛ إنه لم يعصني ساعة قط...**».

وسنده صحيح، فأخطر ما يكون شياطين الجن والإنس على المسلم عند الموت! والقصص في هذه المسألة كثيرة اكتفيت بما ذكرت، وقد كان من دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت!**». أخرجه النسائي رقم (٥٥٣٢)، والحاكم في "المستدرك" (٥٣١/١)، عن أبي اليسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهو حديث حسن.

الفصل الخامس: ما يناله من اتصف بصبر الأنبياء والمرسلين

اعلموا يا معشر القراء أن صبر المقتدين بالأنبياء والرسل هو أجلّ صبر بعد صبرهم؛ لأنه آخذ بزمام ما كانوا عليه في مجالاتهم الدينية العامة والخاصة الظاهرة والباطنة في الحال والمآل وفي السلم والحرب. ومنافع هذا الصبر لا تنقطع ومصالحه لا تنتهي وثماره لا تذبل؛ فهو موصل أصحابه إلى كمال العبودية والسعادة السرمدية، ومحاسن الأخلاق الرضية والأحوال الزكية والمراتب العلية.

ومن أجمع الأبيات في جماع منافع الصبر أبيات ابن الرومي في "ديوانه" (٥٦٣) حيث قال:

أرى الصبر محمـودًا وعنـه مـذاهب ... فكيف إذا ما لم يكـن عنـه مـذهب
هناك يحق الصـبر والصـبر واجـب ... ومـا كان منـه كالضـرورة أوجـب
فشـد امـرؤ بالصـبر كفـا فإنـه ... له عصـمة أسـبابها لا تقضـب
هو المهرب المنجي لمـن أحـدقت بـه ... مـكاره دهـر لـيس مـنهن مهـرب
أعـد خـلالاً فيـه لـيس لعاقـل ... من الناس إن أنصـفن عـنهن مرغـب
لبـوس جمـال، جنـة مـن شـماتة ... شـفاء أسى يثـنى بـه ويثـوب
فيا عجبًـا للشـيء هـذي خـلاله ... وتـارك مـا فيـه مـن الحـظ أعجـب

ومن كلام أهل العلم المجمل في الصبر عن الانتقام: ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "قاعدة في الصبر" ضمن "جامع المسائل" (١٦٧/١): وهو يتحدث

عمن صبر ولم ينتقم ممن ظلمه: «الصبر عاقبته النصر والهدى والسرور والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم».

قلت: إذا كانت هذه العواقب الحميدة في حق من صبر على الناس، فكم ستكون في حق من عم صبره أمور الإسلام والإيمان وغير ذلك، من أمور الدين والدنيا؟! وقد قسمت ما يناله الصابرون إلى قسمين:

الأول: ما ينالونه ويتحقق لهم في الدنيا.

الثاني: ما ينالونه في الآخرة.

وهذا أوان الشروع في بيان هذا:

القسم الأول: ما يناله الصابرون في الدنيا

١) **تحقيق عبودية الله في مقامات الإسلام والإيمان القلبية والبدنية**، وقد سبق بيان هذا.

٢) **الصبر مُعين على التسليم لله في قضائه وقدره**، كما أوضحت هذا في الصبر على المصائب، وهذا التسليم نظام التوحيد وسر العبودية، وتاج السعادة! ولله در الشاعر الأبرش إذْ يقول:

هـون على نفسك من سعيها ... فليس مَا قدر مردود

وارض بحكم اللهِ في خلقه ... كل قضاء الله محمود

"روضة العقلاء" ص (٢١٦).

وقال أحمد بن يحيى الأودي الكوفي:

مفتاح باب الفرج الصبر ... وكل عسر بعده يسر

والدهر لا يبقى على حالة ... والأمر يأتي بعده الأمر

"الفرج بعد الشدة" لابن أبي الدنيا رقم (٩٦).

وقال القاضي عبد الله بن الأحوص بن عمار:

صبرًا جميلا على مَا ناب من حـدث ... والصـبر ينفـع أحيانـا إذا صـبروا

الصـبر أفضـل شيء تسـتعين بـه ... على الزمـان إذا مامسَّـك الضـرر

"روضة العقلاء" ص (٢١٩).

٣) أنه يورث صاحبه درجة الإمامة في الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٣٥٨/٣): «فبالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين».

٤) بقاء صحة القلوب والأرواح والأبدان، قال العلامة ابن القيم في "زاد المعاد" (٣٣٣/٤): «وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر؛ فهو الفاروق الأكبر، والترياق الأعظم».

قلت: ما أعظمها من صحة لو بذلت فيها الدنيا بحذافيرها لم تتحق فهي صحة عامة من أمراض القلوب والأرواح والأبدان، ومنها:

أ - من الهموم والغموم والأحزان.

ب - السآمة والملل.

ج - الضجر والجزع.

د - الغضب والطيش عند الإثارات.

هـ) الخوف الذي يؤدي إلى الجبن في محل الإقدام.

و) الطمع والهلع.

ز) الاندفاع إلى ما لا تحمد عقباه.

ح) الانهيار في تحمل المتاعب وغير ذلك.

وأنشد عبد الله الأحوص:

تعز بحسن الصبر عَن كل هالك ففي الصبر مسلاة الهموم اللوازم
إذا أنت لم تَسْلُ اصطبارا وخشية سلوت على الأيام مثل البهائم
وليس يذود النفس عَن شهواتها من الناس إلا كل ماضي العزائم

"روضة العقلاء" ص (٢٢٢).

٥) **حسن الخلف في الدنيا للصابرين:** لقد وعد الله على لسان رسوله ﷺ بالخلف الحسن لمن أصيب في أمر دنياه، فاحتسب ذلك عند الله، ففي "صحيح مسلم" رقم (٩١٨) عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللَّهُمَّ أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها**».

ولنضرب مثالين لهذا الخلف الإلهي:

عن أم سلمة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه را جعون، اللَّهُمَّ أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرا منها**». قالت: فلما توفي أبو سلمة، قلت: كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيرًا منه، رسول الله ﷺ! أخرجه مسلم رقم (٩١٨).

قلت: يا له من خلف!

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان ابن لأبي طلحة يشتكي، فخرج أبو طلحة فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم: هو أسكن ما كان فقربت إليه العشاء فتعشى ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: وار

الصبي! فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأخبره فقال: «**أعرستم الليلة؟!**». قال: نعم. قال «**اللَّهُمَّ بارك لهما!**». فولدت غلامًا.قال لي أبو طلحة: احفظه حتى تأتي به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. فأتى به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأرسلت معه بتمرات فأخذه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**أمعه شيء**»؟ قالوا: نعم، تمرات فأخذها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فمضغها، ثم أخذ من فيه فجعلها فِي فِيِّ الصبي وحنكه به وسماه عبد الله».

أخرجه البخاري رقم (٥٤٧٠)، وفي رواية للبخاري رقم (١٣٠١): قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن. يعني: من أولاد عبد الله بن أبي طلحة.

وقال عبد العزيز الأبرش:

أتــاك الــروح والفــرج القريــب وســاعدك القضــاء فــلا تخيــب
صــبرت فنلــت عقــبى كل خــير كــذاك لــكل مصــطبر عقيــب

"روضة العقلاء" ص (٢٢٠).

٦) **التمكين في الأرض: قال ابن القيم** رَحِمَهُٱللَّهُ **في** "**الفوائد**" ص (٢٨٣): «سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله أيما أفضل للرجل: أن يمكن أو يبتلى؟! فقال الشافعي: لا يمكن حتى يبتلى؛ فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم».

واعلم أن أدوم تمكين في الأرض للعاملين للإسلام هو تمكين الله لأهل الحديث.

قال إسحاق بن موسى الخطمي: «ما مكن لأحد من هذه الأمة ما مكن لأصحاب الحديث؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال في كتابه: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى

﴿ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾[النور: ٥٥]. فالذي ارتضاه الله قد مكن لأهله فيه، ولم يمكن لأصحاب الأهواء في أن يقبل منهم حديث واحد عن أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأصحاب الحديث يقبل منهم حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وحديث أصحابه. ثم إن كان بينهم رجل أحدث بدعة سقط حديثه، وإن كان من أصدق الناس». أخرجه ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" (١٩/٢)، والخطيب البغدادي في "شرف أصحاب الحديث"رقم (٥٥). وسنده صحيح.

٧) **ثناء الله على الصابرين وتخصيصهم بالمدح:** قال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾[آل عمران: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

٨) **محبة الله لهم،** كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦].

وكفى بهذه المحبة شرفًا لأصحاب الصبر المحمود!

٩) **إيجاب معيته تعالى لهم،** وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم، وليست معية عامة، التي هي معية العلم والإحاطة.

قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩].

قال الإمام الشوكاني في "فتح القدير" (٢٩٧/١): «فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال!».

قلت: هنيئًا لمن كان الله معه فهو المحفوظ بحفظه ومؤيد من عنده ومنصور بنصره ومدفوع عنه من قبله والمُعان بفضله، فماذا يريد الصابرون بعد هذا؟!

١٠) **ضمان النصر والمدد لهم**، كقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[آل عمران: ١٢٥].

ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واعلم أن النصر مع الصبر**». أخرجه أحمد (٣٠٨/١)، والحاكم (٥٤٢/٣)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإسناده حسن.

١١) **الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم**: قال تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣].

١٢) **الإخبار أنه ما يُلَقّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر** قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[القصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾[فصلت: ٣٥].

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ كما في "العذب النمير" (٤٦/١): «والصبر خصلة من خصال الخير عظيمة، صرح الله في سورة فصلت أنه لا يعطيها لكل الناس، وإنما يعطيها لصاحب الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، وذلك في قوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت: ٣٥]».

بل قال العلامة ابن عاشور في "تفسيره" (٢٩٥/٢٤) عند هذه الآية: «والصبر من جملة الحظ العظيم؛ لأن الحظ العظيم أعم من الصبر، وإنما خص الصبر بالذكر؛ لأنه أصلها ورأس أمرها وعمودها».

١٣) **الإخبار أنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر**: وفي هذا الانتفاع إصلاح عظيم، كقوله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[إبراهيم: ٥].

وقوله سبحانه في قوم سبا: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[سبا: ١٩].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[الشورى: ٣٢ – ٣٣].

١٤) تقديم الصابرين على غيرهم بالذكر قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[آل عمران: ١٦ – ١٧].

قال العلامة ابن عثيمين في "التفسير" (٦٨/٢): «إن الصبر أفضل هذه الصفات؛ لأن الإنسان إذا حقق الصبر حقق جميع الصفات».

وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[الحج: ٣٤ – ٣٥].

وهذا التقديم يدل على علو شأن الصبر.

١٥) **تشبه أصحاب الصبر بالملائكة: قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين"** ص (٣٧): «الإنسان منا إذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة التحق بالملائكة».

قلت: المراد أن الصابر أشبه الملائكة بسبب اجتنابه لما حرم الله وأدائه لما أوجب الله.

١٦) **الانتصار على شياطين الجن والإنس.**

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في** "**عدة الصابرين**" ص (٤٧): «فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه، وأوشك أن ينال منه غرضه».

قلت: قهر الأعداء من شياطين الجن والإنس يكون بالصبر المحمود، وتقوى المعبود، فمتى اجتمعت هاتان الخصلتان في العبد فلا أنصر منه على شياطين الجن والإنس، وهذا النصر كماله بكمال الصبر والتقوى ونقصه بنقصانهما. ولله در عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقد قال: «إن شيطانًا لقي شيطانًا فقال: ما لي أراك ضعيفًا؟ فقال: إني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار فقال: لكني مع رجل إن أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعًا، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسم الله فأدخل معه وإن جامع امراته لم يسم الله فأجامعها معه».

أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" رقم (١٩٥٦٠)، والخطابي في "غريب الحديث" (٤٦٣/٢)، والطبراني في "الكبير" رقم (٨٧٨٢)، والبيهقي في "شعب الإيمان" رقم (٥٨٣٣)، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا، وقال الحافظ الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٢٢/٥)، رواه الطبراني موقوفًا ورجاله رجال الصحيح. قلت: وسنده صحيح عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

١٧) **الانتصار على النفس والهوى: قال العلامة ابن رجب في** "**جامع العلوم والحكم**" (٤٨٩/١-٤٩٠): «وكذلك جهاد العدو الباطن، هو جهاد النفس والهوى؛ فإن جهادهما من أعظم الجهاد، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله**» ... فهذا الجهاد يحتاج أيضا إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه، غلبه وحصل له النصر والظفر، وملك نفسه،

فصار عزيزًا ملكًا، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك، غلب وقهر وأسر، وصار عبدًا ذليلا أسيرًا في يدي شيطانه وهواه، كما قيل:

إذا المـرء لـم يغلـب هـواه أقامـه بمنزلـة فيهـا العزيـز ذليـل».

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (١١٢): «فإن العبد اذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو الملك حقًا؛ لأن صاحب هذا الملك حر، والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه؛ فهو مسخر مملوك في زي مالك، يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير. فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذي صورته ملك وباطنه رق، وعلى الشهوة التى أولها لذة وآخرها حسرة».

وقال أيضًا في "المصدر نفسه" ص (٣٧): «فالإنسان منا إذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة، التحق بالملائكة، وإن غلب باعث الهوى والشهوة صبره التحق بالشياطين، وإن غلب باعث طبعه من الأكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهائم».

١٨) **استجابة الدعاء بإذن الله:** واعتبر بأيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما صبر ذلك الصبر العظيم دعا الله فقال كما أخبر الله: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[ص: ٤١ – ٤٦].

١٩) **إخباره عَزَّوَجَلَّ أن الصبر خيرٌ مطلق لأصحابه،** قال تعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[النحل: ١٢٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾[النساء: ٢٥].

فالصابرون لا ينقطع خيرهم لأنفسهم ولغيرهم ولا ينقطع عطاء الله لهم؛ فهم في مزيد من فضله.

٢٠) **إطلاق البشرى لأهل الصبر**: كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: ١٥٥].

والمراد بإطلاق البشرى: أنها شاملة لخيري الدنيا والآخرة، وشاملة للدين والدنيا.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (٢١٤): «وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وماعليها وهى: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية، في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٥٧]، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم».

القسم الثاني: ما يناله الصابرون في الآخرة:

١) **تكفير السيئات ومحو الخطيئات**: عن شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: إني إذا ابتليت عبدا من عبادي مؤمنًا، فحمدني على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا**».

أخرجه أحمد (١٢٣/٤)، والطبراني في "الكبير" (٢٧٩/٧-٢٨٠)، و"الأوسط" رقم (٤٧٠٩)، وأبو نعيم في "الحلية" (٣٠٩/٩-٣١٠)، وحسنه الألباني في "الصحيحة" تحت رقم (١٦١١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها**» أخرجه البخاري رقم (٥٦٤٧)، ومسلم رقم (٢٥٧١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**». أخرجه الترمذي رقم (١٩٧٥)، وأحمد (٢/٢٨٧)، وهو حسن.

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض وليس عليه خطيئة**» أخرجه أحمد (١/١٧٢)، وابن حبان رقم (٢٩٠٠، ٢٩٢١)، والحاكم (١/٤١)، وهو حسن.

وهذا التكفير سواء كان لكثير أو قليل من ذنوبه، فهو مشروط بالصبر والاحتساب.

٢) **أن الله وعدهم جزاءً بأحسن أعمالهم بالجنة وغيرها**، قال تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٦].

٣) **الإخبار بأن الفوز بالمطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب،** ودخول الجنة بالصبر، كقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[الإنسان: ١٢].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتدرون من أول من يدخل الجنة من خلق الله؟**»، قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «**أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين يسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله لمن يشاء من ملائكته: إيتوهم فحيوهم. فيقول الملائكة: ربنا نحن سكان سماواتك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم**

كانوا عبادا يعبدوني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٤]».أخرجه ابن حبان (٤٣٨/١٦)، وأحمد (٢١٦/٢)، وإسناده جيد.

٤) **دخولهم الجنة بغير حساب:** عن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي! قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**». فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف؛ فادع الله لي أن لا أتكشف. «**فدعا لها**». أخرجه البخاري رقم (٥٦٥٢)، ومسلم رقم (٢٥٧٦).

وأخرجه أحمد (٤٤١/٢)، والبزار كما في "كشف الأستار" رقم (٧٧٢)، وابن حبان رقم (٢٩٠٩) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وفيه: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ : «**وإن شئت صبرت ولا حساب عليك**». قالت:بل أصبر ولا حساب علي. قال الهيثمي في "المجمع" (٢٠٦/٢): إسناده حسن.

٥) **الوصول إلى الدرجات العالية في الجنة:** عن إبراهيم بن مهدي السلمي، عن أبيه، عن جده رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وكانت له صحبة قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «**إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى**». أخرجه أبو داود رقم (٣٠٩٠). وصححه الألباني.

٦) **إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب:** قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[الزمر: ١٠].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا والله ما هناكم مكيال وميزان»، أخرجه الطبري في "تفسيره" (٢٧٠/٢١)، بسند حسن.

وعن ابن الأنباري قال: «عزى إبراهيم بن يحيى رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الخلفاء، فقال: إن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون فيه».

رواه البيهقي في "الشعب" (٤٤٥/١٢) رقم (٩٧١٤)، وإسناده حسن.

قال الحسين بن عبد الرحمن كما في "الصبر والثواب عليه" لابن أبي الدنيا رقم (١٥٨):

تعز إذا أصبت بكل أمر ... من التقوى أمرت بها مصابا

فكل مصيبة عظمت وجلت ... تخف إذا رجوت لها ثوابا

٧) **يغبطون يوم القيامة:** عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض**». أخرجه الترمذي رقم (٢٤٠٢)، وصححه الألباني.

الفصل السادس: فوارق في الصبر والصابرين

وقبل الدخول في تفاصيل ما ذكرنا أذكر قاعدة من قواعد هذا الفصل، وهي: «كل صبر في محله وموضعه أفضل من غيره».

قال ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٦٤): «فالصبر عن الحرام في محله أفضل، والصبر على الطاعة في محلها أفضل».

قلت: التفاضل بين صبر وصبر أساس التفاضل بين الفوارق الآخرى الآتية.

وأما الفوارق بين صابر وصابر، فمجملها ما **قاله العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين"** ص (٢٦): «ومن الناس من يكون صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره فيصبر على مشقة الطاعة، ولا صبر له عن داعي هواه إلى ارتكاب ما نهي عنه، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات».

قلت: ومنهم من تكون قوة صبره على المصائب والأحداث ما لم تكن على الطاعات وترك المنكرات، ومنهم من تكون قوة صبره منوطة بمصالح تعود عليه في دنياه دون صبره على أمور دينه، ولله في خلقه شئون.

الفرق بين الصبر والتصبر، والاصطبار والمصابرة:

لخص العلامة ابن القيم الفوارق بين هذه الأسماء **في كتابه "عدة الصابرين"** ص (٣١-٣٣) فقال: «الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره: فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن إن كان خُلُقا وَمَلَكَة سمي صبرًا، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمي تصبرًا، كما يدل عليه هذا البناء لغة فإنه موضوع للتكلف كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما في الحديث عن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ومن يتصبر يصبره الله». وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير العفاف له سجية، وكذلك سائر الأخلاق...

وأما (**الاصطبار**) فهو أبلغ من التصبر فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطبارًا.

وأما (**المصابرة**) فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر؛ فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ٢٠٠]، فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه والمصابرة وهي حاله في التصبر مع خصمه».

قلت: خلاصة هذه الفروق أن الصبر أعم هذه الأنواع والمصابرة أبلغ من الصبر؛ لأنها المقاومة في ميدان المعارك والملاحم الحسية والمعنوية. والتصبر والاصطبار تارة يكونان مددًا للمصابرة والصبر، وتارة يكونان للابتداء بتحقيق الصبر بهما، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس، فمن كان متصفًا بالصبر فما بعده من المصابرة وما بعدها مدد للصبر، ومن لم يكن متصفًا بالصبر فالبدء بالتصبر والاصطبار، حتى يصير صابرًا والصبَّار أبلغ من صابر، والصبار هو الذي يصبر صبرًا محمودًا على البلاء، ويشكر الله شكرا مزيدًا على النعماء.

فجملة القول: أن الله وصف خاصة عباده من رسل وأنبياء بالصابرين، قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٥]. وهذا وصف حقيقي، ملازم لمن اتصف به.

الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام:

وإن شئت قلت: بين الصبر المحمود والصبر المذموم:

أما الصبر المحمود فهو: الصبر على طاعة الله بفعلها امتثالاً وتقربًا، وعن معاصي الله تقيدًا وإخباتًا، وعلى أقدار الله إيمانًا واحتسابًا، وقد سبق الكلام على هذا بما أرجو أن يكون كافيًا شافيًا؛ ولله الحمد.

وأما الصبر المذموم فهو: الصبر على الكفر والشرك وما دونهما من المعاصي والبدع، قال تعالى مخبرًا عن كفار قريش ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾[الفرقان: ٤٢].

وقال تعالى مخبرًا عن تواصيهم بذلك: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾[ص: ٦].

وقال صاحب "الدرة اليتيمة"، وابن حبان في "روضة العقلاء" ص (١٥٢): «الكرام أصبر نفوسًا، واللئام أصبر أجسامًا».

وقال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٩٥): «فصل: وأما اللئيم فإنه يصبر اضطرارًا، فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدي عليه شيئا فيصبر صبر الموثق للضرب، وأيضا فالكريم يصبر في طاعة الرحمن واللئيم يصبر في طاعة الشيطان، فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم وأقلّ الناس صبرا في طاعة ربهم، فيصبر على البذل في طاعة الشيطان أتم صبر ولا يصبر على البذل في الله في أيسر شيء، ويصبر على تحمل المشاق لهوى نفسه في مرضاة عدوه ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة ربه، ويصبر على ما يقال في عرضه في المعصية ولا يصبر على ما يقال في عرضه إذا أوذي في الله، بل يفر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ خشية أن يتكلم في عرضه في ذات الله ويبذل

عرضه في هوى نفسه وصابرًا على ما يقال فيه، وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده ولا يصبر على التبذل لله في مرضاته وطاعته، فهو أصبر شيء على البذل والتبذل في طاعة الشيطان أو مراد النفس، وأعجز شيء عن الصبر على ذلك في الله، وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبه كريما عند الله ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ليعلمن أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم».

صفة الصبر لله تعالى مغايرة لصفة الصبر في خلقه:

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ يدعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم!**». أخرجه البخاري رقم (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٥٣٢-٥٣٦): «وفي أسمائه الحسنى: الصبور وهو من أمثلة المبالغة أبلغ من المصابر والصابر. وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة، منها: أنه عن قدرة تامة، ومنها: أنه لا يخاف الفوت، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت، ومنها: أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما ... فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة وهو صبر من أعظم مصبور عليه؛ فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين ومَن إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش ونسبته إلى كل ما لا يليق به والقدح فى كماله وأسمائه وصفاته والإلحاد فى آياته وتكذيب رسله -عليهم السلام- ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم أمر لا يصبر عليه إلا

الصبور الذي لا أحد أصبر منه ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما، فتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر: ٤١].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[مريم: ٨٨ - ٩١].

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[إبراهيم: ٤٦]. على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فبالحلم أمسكهما وإمساكهما أن تزولا هو الصبر فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه».

الفرق بين الصبر لله والصبر بالله:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "مدارج السالكين"** (٢/٤٤٨-٤٤٩): « الصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجلّ، فإن الصبر لله متعلق بإلهيته، والصبر به: متعلق بربوبيته. وما تعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته.

ولأن الصبر له عبادة، والصبر به استعانة، والعبادة غاية، والاستعانة وسيلة، والغاية مرادة لنفسها، والوسيلة مرادة لغيرها.

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به.

وأما الصبر له: فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين، وأصحاب مشهد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥].

ولأن الصبر له: صبر فيما هو حق له، محبوب له مرضي له. والصبر به: قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له، وقد يكون في مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟!.

قلت: كون الصبر لله أفضل من الصبر بالله لا إشكال في هذا؛ لأنه عبودية له، وحق من حقوقه سبحانه.

ولكن لا تنس أن الصبر بالله أساس للصبر لله؛ لأنه لولا أن الله صبَّر العبد ما صبر لربه قط.

الفرق بين صبر الأنبياء والرسل وصبر أتباعهم:

صبر الأنبياء والرسل أكمل وأدوم في كل المجالات في مجال الدعوة إلى الله، وفي مجال تحملهم مؤاذاة الناس.

وفي مجال الصبر على أقدار الله وفي مجال تنفيذ أوامره واجتناب نواهية، يفهم هذا من ثناء الله على أنبيائه ورسله بصبرهم له، وأيضًا أمره رسوله بالاقتداء بجميع الرسل في الصبر ما عدا يونس.

وأيضًا ثناء الله على أنبياء ورسل بأعيانهم في الصبر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنبياء: ٨٥].

وقال تعالى في أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ٤٤]، وغير ذلك.

الفرق بين صبر الأنبياء وصبر الرسل:

المراد بالرسل هنا: الخصوص، وهم الذين يُرسلون إلى قوم كافرين فهؤلاء صبرهم أكمل من الأنبياء؛ لأن أقوام الرسل هؤلاء لا تستجيب لهم في الغالب، بل تكذبهم وتكفر بما جاءوا به؛ فتعظم مؤاذاتهم لرسلهم ويستمر فيهم رسلهم مع المؤاذاة، حتى يحكم الله بينهم وبين أقوامهم إما بإهلاك أقوامهم وهذا هو الأكثر، وإما بهدايتهم وهو الأندر. واعتبر في هذا برسول الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، ورسول الله هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، وصالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، ولوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، وشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون وقومه.

فهؤلاء الأقوام أهلكهم الله بسبب تكذيبهم لرسلهم، فهل تحس منهم أحدا أو تسمع لهم ركزًا؟! فطول بقاء هؤلاء الرسل في أقوامهم مع طول المؤاذاة لهم أكمل في الصبر ولا بد، وأما هداية أقوام الرسل فهذا نادر جدًّا.

واعتبر بإيمان قوم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعدما صبر عليهم حتى ضاق منهم وتركهم، فآمنوا بعد ذلك.

وأُرسل إليهم يونس بعد النجاة من الغرق قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[الصافات: ١٤٧ - ١٤٨].

الفرق بين العقل والصبر:

قال ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه"رقم (١٥٦): حدثني الحسين بن عبد الرحمن قال: قال بعض حكماء الهند: «الصبر قوة من قوى العقل، وبقدر مولد العقل ينمى الصبر» وسنده حسن إلى الحسين بن عبد الرحمن.

وقال العلامة ابن الجوزي في "ذم الهوى" ص (٥٨): «واعلم وفقك الله أن الصبر مما يأمر به العقل وإنما الهوى ينهى عنه، فإذا فوضلت فوائد الصبر وما تجلب من الخير عاجلاً وآجلاً، بانت حينئذ فضائل العقل وخساسة الهوى».

قلت: كون الصبر قوة من قوة العقل لا إشكال في هذا، وهذا القول يفيد أن العقل كلما كان أقوى إدراكًا كان الصبر أكمل ثباتًا، فالعقل والصبر كلاهما من أعمال القلوب غريزة واكتسابًا، فهما من هذه الحيثية متفقان، ومن الجهة التي ذكرت في الأثر، وكلام ابن الجوزي مفترقان.

الفرق بين الصبر والحلم وقاعدة ذلك:

قال ابن أبي الدنيا في كتاب "الحلم" رقم (٧٣): «بلغني أن الأحنف بن قيس قيل له: ما الحلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلاً».

وقال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٥٣٣): «والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، والحلم فى صفات الرب تعالى أوسع من الصبر؛ ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٥١] ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾[النساء: ١٢]».

وقال أيضًا ص (٥٣٩): «ولما كان اسمه الحليم أدخل فى الأوصاف واسم الصبور فى الأفعال، كان الحلم أصل الصبر؛ فوقع الاستغناء به فى القرآن عن اسم الصبور، والله أعلم».

قلت: هذا الفرق الذي ذكر ابن القيم بين صبر الله وحلمه، تفريق نفيس.

أما صبر المخلوق وحلمه فصبره أوسع من حلمه بنص الأحاديث الصحيحة، التي سبق ذكرها.

وأيضًا الآيات كثيرة الواردة في الصبر إيجابًا وترغيبًا وتحذيرًا من تركه ولم يرد في القرآن إيجاب الحلم على المؤمنين ولا التحذير من تركه، غاية ما في الأمر أنه مرغب فيه؛ فهذا يدل على أن الحلم عزيز في الناس.

فرأس المسألة أن الفوارق بين صبر المسلم وحلمه كالآتي:

١] الصبر فرض والحلم مرغب فيه.

٢] الصبر في المخلوق أعم والحلم أخص.

٣] الصبر منه المحمود ومنه المذموم والحلم كله ممدوح.

٤] الصبر أخص بالفعل والحلم أخص بالاتصاف.

٥] الحلم أجلّ من الصبر؛ لأن الله تسمى به، نصًا وقرنه كثيرًا بالعلم.

وأما القاعدة فهي: كل حليم صابرٌ وليس العكس.

الفرق بين الصبر والشكر :

تقدم أن الشكر نصف الإيمان وكذا الصبر وأن بين الشكر والصبر تلازمًا لا ينفك، **قال ابن القيم في "عدة الصابرين"** ص (٢٩٥): «فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر سواء كان محبوبا أو مكروها فالفقر مثلا يتعلق به الصبر، وهو أخص به لما فيه من الكراهة، ويتعلق به الشكر؛ لما فيه من النعمة. فمن غلب عليه شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عده نعمة يشكر عليها، ومن غلب عليه شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية يصبر عليها، وعكسه الغنى».

وأما الفرق بينهما، فقد **قال ابن القيم في "المصدر السابق"** ص (٣٣٦): «فالصبر فى مواطن الصبر أفضل، والشكر فى مواطن الشكر أفضل». ومعنى كلامه: أن العبد إذا ابتلي بالنعماء فشكر الله فهذا أفضل من الصبر، وإذا ابتلي

بالضراء فصبر فهذا أفضل؛ باعتبار أن الواجب عند المصائب هو الصبر ولو شكر الله على ذلك كما يشكره عند النعم فهذا أفضل من الصبر، لكن هذا لا يكاد يتحقق إلا في أندر من النادر، ولا يتحقق الشكر بالصبر على المصائب إلا في حالة أن يحب البلاء كما يحب العطاء، فإنه هنا يكون صابرًا شاكرًا وأين هذا؟!

قلت: خلاصة هذه المسألة بالآتي:

١ - الشكر والصبر مطيتان لا بد منهما لكل سائر إلى الله، لأنه يتقلب بين النعماء والضراء.

٢ - كل من الشكر والصبر أفضل في محله.

٣ - التلازم حاصل بينهما بحيث كلما وجد أحدهما استلزم وجود الآخر، وإذا أطلق أحدهما تضمن الآخر.

٤ - الشكر أفضل باعتبار أغلبيته على الصبر، وليس العكس.

٥ - الأشخاص الصابرون والأشخاص الشاكرون تختلف أحوالهم وقد يصل في النادر من الصابرين من هو أفضل من الشاكرين.

٦ - أكثر المسلمين يصبرون في الجملة أكثر مما يشكرون.

الفرق بين صبر الفقراء وصبر الأغنياء:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر». "البداية والنهاية" (١٤/٣٩٢).

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين" ص (٢٩٨): «والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقير لا بد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل

فإن قيل: فإذا كان صبر الفقير أتم، وشكر الغني أتم، فأيهما أفضل؟.

قيل: أتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله، ولا يصح التفضيل بغيرهذا ألبتة».

وقال أيضًا في "عدة الصابرين" ص (٥١٣): «طريق الفقر والتقلل طريق سلامة مع الصبر وطريق الغنى والسعة في الغالب طريق عطب. فإن اتقى الله في ماله ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله وليس مقصورا على الزكاة، بل من حقه إشباع الجائع وكسوة العاري وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج والمضطر، فطريقه طريق غنيمة وهي فوق السلامة».

وقد أطال ابن القيم النَّفَس في هذه المسألة في "المصدر المذكور" في آخره انظر: ص (٥٠٩) وما بعدها.

قلت: إذا بلغ بالغني صبره إلى الزهد في المال والجاه والملك وشكر الله على نعمه وبذل المال في مرضاة ربه، فصبره أفضل من صبر الفقير الصالح؛ لأن صبر الغني عن قدرة ونعمة حاضرة وميسرة؛ ولهذا قال بعض السلف وقد سمي له جماعة من الفقراء الزهاد: «الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها».

أخرجه أحمد (٢٤٩/٥)، وعبد الله بن أحمد في "السنة" (١١٩/١)، وابن الأعرابي في "الزهد"رقم (٥١)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢٥٧/٥)، بإسناد حسن.

وأيضًا من أصول التفضيل: نفع الآخرين، وهذا متحقق في الغني المذكور. وعلى هذا: فيكون التفضيل لصبر الغني على الفقير من جهتين:

الأولى: الحال.

الثانية: النفع المتعدي.

الفرق بين الصبر على السراء والصبر على الضراء:

اعلم أنه يسهل الصبر على الضراء عند كثير من الناس، ولا يسهل على كثير منهم الصبر على النعماء، بل كثير من الناس تخرجهم النعمة إلى الأشر والبطر والطغيان، وإن لم فإلى الغفلة والدعة والسكون، وقلَّ من يصبر على النعماء، وأقلّ منه من يشكر الله على ذلك. وهذا الذي قلته قد أدركه السلف وعقلاء الخلف.

عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر». أخرجه الترمذي رقم (٢٤٦٤)، وعبد الرزاق في "المصنف" رقم (٢٠٩٩٧)، وابن المبارك في "الزهد" رقم (٤٧٥) وغيرهم، وهو أثر صحيح.

وقال سفيان الثوري: «ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة». أخرجه ابن المبارك في "الزهد" رقم (١٠٢)، وأحمد في "الزهد" رقم (٢٥٨)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (٢٣٩/٧)، والدينوري في "المجالسة" (٤٢٠/١)، رقم (١١٨)، وأبو نعيم في "الحلية" (٥٥/٧)، والبيهقي في "الشعب" (٣٨٩/١٢)، وهو صحيح.

وعن عبد الملك بن أبجر[1] قال: «ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو مبتلى ببلية لينظر كيف صبره». أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٨٥/٥). وهو صحيح.

وقال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صديق». نقلاً من "عدة الصابرين" ص (١١٥).

---

(١) هو: عبد الملك بن سعيد بن حيان بن أبجر الكوفي، ثقة عابد، توفي في منتصف القرن الثاني تقريبًا. "التقريب".

وعن مسلم البطين قال: «قلت لسعيد بن جبير: الشكر أفضل أم الصبر؟ قال: الصبر والعافية أحب إليَّ». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب" رقم (٢٦). وهو حسن.

وقال ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (١١٧-١٢٧): «وإنما كان الصبر على السراء شديدًا، لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها».

قلت: خلاصة هذا الفرق: أن الصبر على السراء أكمل وأفضل؛ لأنه صبر مع القدرة.

وأيضًا الشكر فيه أكثر منه عند صاحب الضراء.

الفرق بين صبر الجوارح وصبر اللسان:

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (١٢٦): «ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر؛ لشدة الداعي إليهما وسهولتهما؛ فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك؛ فتتفق قوة الداعى وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر؛ ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ: «**أمسك عليك لسانك!**». فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!**» ولا سيما إذا صارت المعاصى اللسانية معتادة للعبد، فإنه يعز عليه الصبر عنها».

قلت: تقدم صبر الصديقين على الصمت إلا في خير، فمعاصي اللسان التي ذكرها ابن القيم لا يصبر عليها إلا الصديقون، فانظر أين أنت منهم؟!

الفرق بين الصبر على المصائب وبين الصبر على المعايب:

المصائب هي: ما يصاب به العبد بدون صنعه، ولا حيلة له في دفعه كالمرض والموت والفقر وغير ذلك، فالصبر على هذه المصائب يتفاوت فمنه السهل، ومنه الصعب:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "صيد الخاطر"** ص (٣٢٥): «ستر المصائب من جملة كتمان السر؛ لأن إظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (٥٢٩): «ومما يقدح في الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها، وكتمانها رأس الصبر».

قلت: أكمل الصبر على المصائب سترها.

وأما المعايب فهي: الذنوب التي يقع فيها العبد، ويعاقب على ذلك، فإذا صبر على العقوبة وقام بالتوبة إلى الله فهذا الصبر أفضل من الصبر على المصائب؛ إذْ لا شيء أحب إلى الله من التوبة إليه.

وقد بين ابن الجوزي ما على صاحب المعايب، **فقال في "صيد الخاطر"** ص (٢٠١) وهو يتحدث عن الصبر عند البلاء «فالواجب الصبر...ويقطع المواد التي كانت سببًا للبلاء؛ فإن غالب البلاء أن يكون عقوبة».

قلت: فإذا قطع أسباب المعاصي التي وقع فيها فقد حقق التوبة إلى الله؛ والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

الفرق بين الصبر عن المعاصي والصبر على المصائب:

الصبر عن المعاصي أفضل، للفوارق الآتية:

١) الصابر عن المعاصي صبره اختياري، والصابر على المصائب اضطراري.

٢) الصبر عن المعاصي يختص به صالح المؤمنين، والصبر على المصائب مشترك بين البر والفاجر والبهائم.

٣) الصبر عن المعاصي فيه مقاومة أربعة أعداء مقاومة تامة، وهم: النفس والهوى والدنيا والشيطان، والصبر على المصائب وإن كان فيه مقاومة للنفس والهوى والشيطان إلا أنها أخف بكثير مما قبلها.

٤) الصبر على المعاصي يُحتاج إليه على جهة الاستمرار، وأما المصائب ففي حال نزولها واشتدادها.

فإذا تلاشت لم تبق الحاجة كبيرة إلى الصبر عليها.

وقد فرَّق بين الصبر على المعاصي والصبر على المصائب غير واحد من السلف، قال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل من ذلك الصبر عن المعصية». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٨)، وذكره ابن الجوزي في "ذم الهوى" ص (٦٠). وهو صحيح.

وقال العلامة ابن الجوزي في "صيد الخاطر" ص (٥٧٦): «وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عن المشتهى».

قلت: والتفريقات التي ذكرتها هي في الجملة في الصبر عن المعاصي والصبر على المصائب، لا في الأشخاص الصابرين على المصائب وعن المعاصي؛ فإنهم يختلفون باختلاف أحوالهم.

الفرق بين الصبر على أداء الأوامر واجتناب النواهي:

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/٤٤٣-٤٤٤) وهو يذكر ما قاله صاحب المنازل: «هذا يدل على أن عنده: أن فعل الطاعة آكد من ترك المعصية؛ فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة.

وهذا هو الصواب ، كما تقدم، فإن ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة. والنهي مقصود للأمر. فالمنهي عنه لما كان يضعف المأمور به وينقصه: نهي عنه حماية، وصيانة لجانب الأمر، فجانب الأمر أقوى وآكد. وهو بمنزلة الصحة والحياة. والنهي بمنزلة الحمية التي تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة».

وقال في "عدة الصابرين" ص (٦٤): «فإن قيل: أي الصبرين أحب إلى الله؟ صبر من يصبر على أوامره، أم صبر من يصبر عن محارمه؟ قيل: هذا موضع تنازع فيه الناس».

ثم سرد الخلاف ورجح: أن الصبر على المأمور أفضل من عشرين وجهاً.

وقبله قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٦٧١/١١): «إن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات».

وقال العلامة ابن عثيمين في "تفسيره" (٢١٣/٩): «والصبر على طاعة الله شاق من وجهين: من وجه إلزام النفس بالقيام بها، ومن وجه تعب البدن بالقيام بها، فها هنا عناءان: الأول: مع النفس. والثاني: مع الجوارح. ولهذا كان هو أعلى أقسام الصبر».

وقال أيضًا في "تفسيره" (١٥٦/١): «فالصبر على الطاعة هو أشقها وأفضلها؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلاً وكفًّا اختياريا لفعل الطاعة، وكف النفس عن التهاون بها وعدم إقامته فهو إيجادي إيجابي».

قلت: هذا التفريق في الطاعات والمناهي نفسها، وأما القائمون بذلك فالأفضلية لأحدهما على الآخر يتحقق بأمور أخرى تتعلق بحال المكلفين والزمان والمكان وغير ذلك.

الفرق بين صبر الإنسان في اجتناب قتال المسلمين وبين قتاله من قصد هلاكه.

قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٥٦-٥٧): «ومن الصبر المحظور صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو حية أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين فإنه مباح له، بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة. وقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه المسألة بعينها فقال: «**كن كخير ابني آدم**» وفي لفظ «**كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل**»، وفي لفظ «**دعه يبوء بإثمه وإثمك**»، وفي لفظ آخر «**فإن بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك**». وقد حكى الله استسلام خير ابني آدم وأثنى عليه بذلك، وهذا بخلاف قتل الكافر فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه؛ لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين».

قلت: قد جاءت الأدلة بدعوة المسلم إلى الابتعاد عن قتال الفتنة، كما أوضحت هذا في كتابي: "**تمام المنة في فقه قتال الفتنة**"، ورسالتي: "**إتحاف أهل السنة بتوضيح أصل ترك القتال في الفتنة**". وأوضحت فيهما الدفاع عن النفس والعرض والمال، وضوابط ذلك.

الفرق بين صبر فيه الشكوى إلى المخلوق وصبر ليس فيه الشكوى إلا إلى الخالق.

قد تقدم الكلام على هذا في شروط الصبر؛ فأغنى ذلك عن إعادته.

الفرق بين كظم الغيظ والصبر:

كظم الغيظ صبر في الباطن وهذا الصبر أجلّ من صبر الظاهر؛ لأن أعمال القلوب أجلّ من أعمال الجوارح، بل هي أصلها، وأيضًا كظم الغيظ يدل على تكامل قوة الصبر.

قال الحسن البصري: «ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة محزنة موجعة ردها صاحبها بحسن صبر وعزاء ، أو جرعة غيظ كظم عليها». أخرجه ابن أبي شيبة في"المصنف" (٨٨/٧) رقم (٣٤٤٠٩)، وسنده إلى الحسن حسن.

وعن إبراهيم التيمي قال: «أُريت في النوم كأنه ورد بي على نهر فقيل لي: اشرب واسق بما صبرت، وكنت من الكاظمين». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (٨٢) وسنده صحيح.

وقال النيسابوري في "غرائب الفرقان" (٧٥/٤): «وكظم غيظه هذا قسم من أقسام الصبر والحلم».

قلت: كظم الغيظ نوع من الصبر، ولكنه أقواه وأعلاه، وهو من الصبر الخالص لله ومن الإحسان العظيم إلى عباد الله، والبر الكبير بخلق الله؛ فهو أفضل، والله أعلم.

الفصل السابع: ذكر ما ينافي الصبر المحمود ويضاده ويقدح فيه

اعلم يا عبد الله أن سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل: أنه يبتلي الخلق والعباد بما يكرهون من الضراء. وهذا الابتلاء فيه من الرحمة الإلهية والحكمة الربانية والسعادة الأبدية ما يعجز الواصفون عن الإحاطة بذلك، **قال العلامة ابن القيم في "مفتاح دار السعادة"** (٣٠٢/٢): «وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة. فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة والمنة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان!».

وقال في "شفاء العليل" (١٢٣٤/٣): «فالآلام والمشاق إما إحسان ورحمة وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحصل بعدها، وإما لدفع ألم هو أصعب منها وإما لتولدها عن لذات ونعيم يولدها عنها أمر لازم لتلك اللذات، وإما أن تكون من لوازم العدل أو لوازم الفضل والإحسان؛ فتكون من لوازم الخير التي إن عُطلت عُطلت ملزوماتها وفات بتعطيلها خير أعظم من مفسدة تلك الآلام».

وقال المنبجي الحنبلي في "تسلية أهل المصائب" ص (٣٤): «وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً... فلولا أنه سبحانه

وتعالى يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء، لطغوا وبغوا وعتوا وتجبروا في الأرض، وعاثوا فيها بالفساد؛ فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمر ونهي، وصحة وفراغ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها، تمردت وسعت في الأرض فساداً مع علمهم بما فعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟!».

قلت: وقد تتفاوت عقول الناس في معرفة حكمة الله في هذه الابتلاءات، فأكثرهم واقف وسائر مع الظواهر والخوادع والقواطع.

قال ابن القيم في "زاد المعاد" (١٩٦/٤): «وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذل ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم؛ فتولد من ذلك إيثار العاجلة، ورفض الآخر. وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ويجاوزه إلى العواقب والغايات، فله شأن آخر».

قلت: فهذه الآفات هي التي أودت بأصحابها إلى الشقاء والعناء والضيق والانهيار، وهي تنافي الصبر وتضاده، فأحببت أن أوضح ما ينافي الصبر؛ لكي يكون أهل الإيمان على قسط كبير من المعرفة بذلك والإجتناب لذلك.

قاعدة هذا الفصل:

قاعدة هذا الفصل قاعدة عظيمة وهي: «كل ما نهى الله عنه فالوقوع فيه يضاد الصبر المأمور به».

وعليه فلا بد من تعظيم ما نهى الله عنه، حتى يجتنب؛ وحتى يسلم للمرء المسلم دينه وعقله وروحه وقلبه.

وما ينافي الصبر ويضاده كالآتي:

الأول: الصبر عن الله:

الصبر عن الله أقبح أنواع الصبر وأضره على العبد وأشأمه عليه:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (٧٧-٧٩): «فالمذموم: الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب إليه؛ فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له، وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمه وأبلغه فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له بدونه ألبتة... وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود، فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه في محبته».

الثاني: شكوى الخالق إلى المخلوق:

قال ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (٥٢٣): «ومما ينافي الصبر شكوى الخالق إلى المخلوق فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه، ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم فى شكاية يعقوب إلى الله مع قوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[يوسف: ١٨]. وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرره لم يقدح ذلك فى الصبر كإخبار

المريض للطبيب بشكايته، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه. وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول: «**كيف تجدك؟!**» وهذا استخبار منه واستعلام لحاله».

قلت: وفي شكوى العبد بربه إلى مخلوق من الجهل بالله وعظمته وكبريائه وبرحمته وحكمته وعلمه ما يمقت عليه صاحبه في الدنيا والآخرة عند الله وعند خلقه، وغير ذلك من المفاسد مما يذم عليها صاحبها.

الثالث: الاعتراض على الله في قضائه وقدره على العبد:

إن من أركان الإيمان المعلومة من الإسلام والقائمة على الإجماع: الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لله في كل ما قدر على العبد. فالمنازعة لله في قضائه وقدره مخالفة للصبر المحمود والأدب المطلوب، بل هو نقص في الإيمان المذكور، ومن تلك الاعتراضات المشئومة قول القائل: ما ذا صنعت يا رب العالمين، حتى تعاقبني بهذه العقوبة؟! وآخر يقول: فلان مسكين لا يستحق ما نزل به من العقوبة! وآخر يقول: لو أني فعلت كذا أو كذا لم يكن كذا أو كذا.

الرابع: الهلع والجزع:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾[المعارج: ١٩ - ٢٠].

والجزع ضد الصبر، قال تعالى مخبرًا عن أهل العذاب في الآخرة: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[إبراهيم: ٢١].

قال رجل للأحنف بن قيس: «ما أصبرك! قال: الجزع شر الحالين؛ يباعد المطلوب ويورث الحسرة، ويبقي على صاحبه عارًا». أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصبر والثواب عليه" رقم (١٩١)، والدينوري في "المجالسة وجواهر العلم" رقم (١٩٢٤) ، وسنده حسن.

والقاعدة المناسبة هنا هي: «لا تجزع من مقدور، ولا تعجز عن مأمور».

قال ابن المقفع : «الأمر أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عن، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه». نقلاً من "مجموع الفتاوى" (٣٩/١٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٣٩/١٦) بعد ذكره لكلام ابن المقفع: «وهذا في جميع الأمور؛ لكن عند المؤمن الذي فيه حيلة هو ما أمر الله به وأحبه له؛ فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له؛ إذ لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقد أمره بكل خير فيه له حيلة وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله».

وقد أوضح ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين" ص (٥٣١) حالة الهلوع والجزوع فقال: «وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية، وإذا أصابه القهر أظهر الاستظامة والاستكانة وباء بها سريعًا، وإذا أصابه الوجع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا إفضال. وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها فى البدن وإخفائها وتحقيرها».

قلت: الجزع مرض من الأمراض الخطيرة المضرة، وفيه مفاسد عديدة:

فصاحبه يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه تعالى، ويسر شيطانه، ويحبط أجره ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أغاض شيطانه ورده خاسئا وأرضى ربه وسر صديقه وساء عدوه، وصبر على إخوانه.

الخامس: إظهار المصيبة والتحدث بها تشكيًا:

قال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **كما في "آداب النفوس"** ص (١٥١): «علامة الصبر ألا تشكو من جميع المصائب إلى أحد من المخلوقين شيئًا».

وقال العلامة ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "صيد الخاطر"** (٣٢٥): «ستر المصائب من جملة كتمان السر؛ لأن إظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب».

وقال أبو علي البلخي: «من شكى مصيبة إلى غير الله لم يجد حلاوة الطاعة». "سير أعلام النبلاء" (٣١٥/٩).

قلت: قد تقدم أن كتمان المصيبة هو الأسلم للمصائب والأفضل، فمن تحدث بمصيبته على جهة الإخبار فقط فهذا جائز، ومن تحدث بها على جهة التسخط على الله فهو على شفا جرف هار!

السادس: شق الثياب عند المصيبة

لطم الوجه وضرب الخدود وشق الثياب وحلق الشعر والدعاء بالويل وما أشبه هذا، أعمال جاهلية تنافي الصبر عند المصيبة، ومن باب أولى أنها تنافي الأدب والتسليم لله في قضائه وقدره وقد نصت الأحاديث الصحيحة المستفيضة على تحريم هذه الأفعال وأمثالها. ومفاد الأحاديث: أن هذه الأفعال من كبائر الذنوب، كما بينت هذا في كتابي: "أحوال المؤمنين الرضية في الحياة البرزخية".

وأما البكاء على الميت بدون نياحة فهو جائز، حتى قال العلامة ابن القيم في "عدة الصابرين" ص (١٩٣): «فهذه اثنا عشر حجة تدل على عدم كراهة البكاء؛ فتعين حمل أحاديث النهي على البكاء الذي معه ندب ونياحة».

السابع: العجلة:

قال الله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[الأنبياء: ٣٧].

فالإنسان مولع بالعجلة حسب طبعه، فإذا تأخر عنه ما يريد ضاق صدره ونفد صبره واشتد عليه أمره، ناسيًا أن الله قد جعل لكل شيء قدرًا، وجعل له أمدًا إلى أجل مسمى، قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[العنكبوت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨].

إلى غير ذلك من الآيات. فالعجلة لا تقرب البعيد ولا تيسر العسير ولا تغير من سنة الله شيئا، قال تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾[الأنعام: ٣٥].

ومعنى الآية: إن لم تصبر فافعل ما بدا لك! وهذا التقرير قال به عامة المفسرين، فالآية تحث حثًا بليغًا على ملازمة الصبر، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

الثامن: الضيق الشديد:

قد يضيق الشخص من أمر نزل به، وعند الله العون على إزالة ذلك والفرج والمخرج من ذلك، قال ربنا: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[الطلاق: ٢].

وقال رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تنزل المعونة على قدر المؤنة، وينزل الصبر على قدر المصيبة**». أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" رقم (٩٩٥٩) والقضاعي في "مسند الشهاب" رقم (٩٩٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حسن.

وقال إبراهيم الحربي: «لا يضيق صدرك؛ فإن الله من وراء المعونة». أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد" (٦/٣١-٣٢)، ضمن قصة طويلة، قال الذهبي في "السير" (١٣/٣٦٨): إسنادها مرسل.

قلت: وعلى من أصيب بالضيق الإقبال على أدعية الكرب، وذكر الله وحسن عبادته؛ ليذهب عنه ما يجد.

التاسع: الصبر على الأمور الدنيوية أكثر من الصبر على أمور الدين:

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في "عدة الصابرين"** ص (٣٦): «وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم، لا في النوع الذى يختص الإنسان فيعد صابرا وليس من الصابرين».

وقال ابن عثيمين في "التفسير" (٩/٥١٢): «المصائب الدينية فإنها أعظم من المصائب الدنيوية، فإذا قدر أن أحدًا أصيب بانتكاسة فهو أشد من أن يهلك أهله وماله؛ فإن المصائب الدينية أعظم بكثير من المصائب الدنيوية إذ أن المصيبة الدنيوية تزول وتُنسى... أما المصائب الدينية -والعياذ بالله- خسارة في الدنيا والآخرة».

قلت: نِعم ما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقد قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**». أخرجه البخاري رقم (٥٥٢)، ومسلم رقم (٦٢٦)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قلت: فإذا كان تفويت صلاة واحدة يعادل ذهاب دنيا الشخص كلها، فكيف بتفويت ما هو أكثر من ذلك؟! بل يُخشى على من لم يصبر من أجل دينه

أن يدعه، أخرج ابن المبارك في "الزهد" رقم (٤٦٨) عن الحسن قال: «إن هذا الدين دين واصب، وإنه من لا يصبر عليه يدعه!... ». وإسناده صحيح.

قلت: الصبر على أمور الدنيا والجزع من أمور الدين حالة خطيرة وسيرة ذميمة، كيف لا والله يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[الحج: ١١]؟!

فالمسلوب من سلب دينه، والمخروب من خرب دينه، والخاسر من خسر آخرته؛ فنعوذ بالله من غضبه وعقابه!

العاشر: الغضب:

المؤمن من يستعين بالله ولا يغضب في أمر يضر به ويلام عليه ويعيقه عن الخير المرجو له، قال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾[القلم: ٤٨].

وصاحب الحوت هو يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وخلاصة قصته عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ : أن الله أرسله إلى قومه فبقي فيهم عمرًا ودهرًا وهو يدعوهم إلى الله، فلم يستجيبوا له؛ فغضب عليهم وفارقهم وذهب إلى شاطئ البحر، وجرى عليه ما جرى مما قصه الله علينا في سورة الأنبياء والصافات، وغيرهما، فنهى الله نبيه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يفعل مثل فعل يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

والغضب أساس كل شر، كما أوضحت هذا في كتابي: "**تحذير البشر من أصول الشر**".

الحادي عشر: اليأس:

اليأس آفة الصبر الكبرى؛ لأنها تطفئ سراج الأمل وتخلد إلى الكسل وتحبط الاهتمام بالعمل، فالدعاة إلى الله لا ييأسون ما أمكن، وإن كان يأسهم في هداية الناس هو من نوع اليأس الذي حصل لبعض الأنبياء والرسل، وهو يأس مأذون به، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أيس الرسل من أن يتّبعهم قومهم، وظن قومُهم أن الرسل قد كَذَبوا، فينصر الله الرسل، ويبعثُ العذابَ». أخرجه ابن جرير الطبري في "تفسيره" (٢٩٩/١٦)، وهو أثر حسن عند بعض المحققين.

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[يوسف: ١١٠]. فقوله: ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أي: بعد الاستيئاس، وهكذا خلفاؤهم وأتباعهم، يأتيهم النصر بعد اليأس، واليأس من رحمة الله بالعبد ومغفرته له كبيرة من كبائر الذنوب؛ فاجتنابه متحتم ولا بد.

الثاني عشر: قبول الاستفزاز والاستخفاف:

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[الروم: ٦٠]. فالدعاة إلى الله بحاجة إلى مسك الجأش وعدم قبول الاستفزازات والاستخاف بهم، قال شيخنا ووالدنا الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ في "غارة الأشرطة" (٣٠٥/١): «أنصح القائمين على الدعوة ...ألا يتسرعوا وألا يستفزهم الطائشون؛ فالطائشون سبب لضرب الدعوات!».

وأيضًا الدعوة لا تقبل الفوضويين، قال شيخنا الوادعي في "السير الحثيث شرح اختصار علوم الحديث" ص (٤٣٨): «ينبغي لنا جميعًا ألا نمكِّن الفوضويين من الدعوة؛ فإنهم سيحطمون الجماعة، وستذكرون!».

الثالث عشر: الصبر المحمود تكتنفه آفتان خطيرتان:

كل صفة حميدة وخلق كريم تكتنفه آفتان خطيرتان- ومن ذلك الصبر المحمود- تكتنفه آفتان وهما:

١] الجزع.

٢] الغلظة.

قال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (٧٧/٣): «وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصبر المحمود انحرفت: إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد وقسوة قلب وتحجر طبع كما قال بعضهم :

تبكي علينا ولا نبكي على أحد ... فنحن أغلظ أكبادًا من الإبل

قلت: الرعاية للصبر الجميل مطلوبة والحماية له من هاتين الآفتين واجبة؛ إذْ لا بقاء لسلامته ونفعه على الوجهة الصحيحة إلا باجتناب ما ذكرنا.

سل الله العافية ولا تَدَّعِ الصبر :

قال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن ابتلى فأصبر!». أخرجه أحمد في "الزهد" رقم (١٣٥١)، وهناد في "الزهد" رقم (٤٤٢)، واللفظ له، ووكيع في "الزهد" رقم (٢٠١)، والسلفي في "الطيوريات" (١٠٣٦/٣)، وهو صحيح الإسناد.

قلت: هذا من الفقه العظيم الدقيق؛ لأن المدعي لا يدري كيف يكون حاله عند الابتلاءات؛ لأن الفتن تغير الناس إلا من رحم الله.

وقال ابن الجوزي في "كشف المشكل" (٥١١/٢) وهو يشرح حديث: «لا تتمنوا لقاء العدو»: «اعلم أن تمني لقاء العدو يتضمن أمرين: أحدهما: استدعاء البلاء. والثاني: ادعاء الصبر. وما يدري الإنسان كيف يكون صبره على البلاء. والمدعي متوكل على قوته، معرض بدعواه عن ملاحظة الأقدار وتصرفها، ومن كان كذلك وُكِلَ إلى دعواه، كما تمنى الذي فاتتهم غزاة بدر فلم يثبتوا يوم أحد، وكما أعجبتهم كثرتهم يوم حنين فهزموا.

وقد نبه هذا الحديث على أنه لا ينبغي لأحد أن يتمنى البلاء بحال، وقد قال بعض السلف: كنت أسأل الله الغزو، فهتف بي هاتف: إنك إن غزوت أسرت، وإن أُسرت تنصرت».

وقال أيضًا في "صيد الخاطر" ص (٢٧٥): «وعلى الحقيقة، ما الصبر إلا على الأقدار، وقل أن تجري الأقدار إلا على خلاف مراد النفس.

فالعاقل من دارى نفسه في الصبر بوعد الأجر، وتسهيل الأمر؛ ليذهب زمان البلاء، سالمًا من شكوى، ثم يستغيث بالله تعالى سائلًا العافية».

وبهذا الباب أختم كتاب

"**بهجة الناظرين في صبر المرسلين والنبيين والصديقين**"

سبحانك الله وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

المحتويات

الموضوع : ..... رقم الصفحــة

المقدمة..... ٥

الفصل الأول: تعريف الصبر وحقيقته وخاصيته ومنزلته وحكمه، وأقسامه، وقواعده وأصوله، وأركانه وشروطه، وغايته وما يكتنفه. ٩

تعريف الصبر:..... ٩

حقيقة الصبر:.....١٠

الصبر الاختياري خاصية الإنسان: ١٢

منازل الصبر المحمود العامة ١٣

الأولى: أنه عطاء الله الواسع:.....١٣

المنزلة الثانية: الصبر ضياء:.....١٥

المنزلة الثالثة: أدلة الصبر أكثر من أدلة أركان الأخلاق:.....١٨

المنزلة الرابعة: الصبر أُمُّ الوسائل، ومكمل الفضائل، ومقوم الغايات:.١٩

المنزلة الخامسة: مقامات الإسلام والإيمان تفتقر إلى الصبر: ٢٠

المنزلة السادسة: قيام عبودية الله كلها على ساق الصبر ومن ذلك الأمر والنهي:.....٢٢

المنزلة السابعة: الصبر نصف الإيمان:.....٢٣

المنزلة الثامنة: الصبر دواء الفتن والآفات:.....٢٧

المنزلة التاسعة: الصبر وإن كان مركبًا صعبًا ولكنه يُهوِّن كل الصعاب بإذن الله:.....٢٩

المنزلة العاشرة: كل عبادة لا تتم على وجه الكمال إلا بأن يكون الصبر قبلها ومعها وبعدها:.....٣١

المنزلة الحادية عشرة: لا يستغنى عن الصبر في حال من الأحوال:.....٣٢

أسس الصبر:.....٣٣

أركان الصبر.....٣٩

شروط الصبر التام.....٤١

للصبر دعامتان لا بد منهما:.....٤٣

الحكمة تشد أزر الصبر:.....٤٤

قواعد الصبر.....٤٦

القاعدة الأول:.....٤٦

القاعدة الثانية:.....٤٦

القاعدة الثالثة:.....٤٦

القاعدة الرابعة:.....٤٧

القاعدة الخامسة:.....٤٧

أقسام الصبر.....٤٨

النوع الأول: الصبر بالله:.....٤٨
النوع الثاني: الصبر لله:.....٤٩
النوع الثالث: الصبر فيه:.....٥٠
النوع الرابع: الصبر مع الله:.....٥١
القسم الثاني: الصبر باعتبار محله:.....٥٢
القسم الثالث: الصبر المتعلق بحال المكلفين:.....٥٣
قاعدة: فيما يشق من الصبر وفيما لا يشق:.....٥٤
القسم الرابع: الصبر الحاصل في الناس على قسمين: محمود ومذموم:.....٥٤
امتحان الله صبر العباد وقاعدة ذلك:.....٥٥
أسباب تقوي عموم الصبر:.....٥٨
أحوج الناس إلى الصبر أصحاب الأعمال الجليلة:.....٦١
غاية الصبر المحمود:.....٦٢
منتهى الصبر:.....٦٤
حكم الصبر:.....٦٥
الفصل الثاني: آيات الصبر محكمة غير منسوخة.....٦٩
الفصل الثالث: صبر المرسلين والنبيين.....٧٨
صبر أولي العزم من الرسل:.....٨٠
صبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:.....٨١

صبر إبراهيم خليل الرحمن في الدعوة إلى الله:.....٨٢

صبر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:.....٨٤

صبر عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:.....٨٦

صبر نبينا محمد سيد الأولين والآخرين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:.....٨٧

صبر الأنبياء والرسل من غير أولي العزم:.....٩٠

صبر إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:.....٩١

صبر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.....٩١

صبر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.....٩٥

صبر أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:.....٩٧

أنبياء ورسل لم يستجب لهم قط ومع هذا صبروا:.....١٠٠

خلاصة ما سبق ذكره من صبر الأنبياء والرسل جملة وتفصيلا عمومًا وخصوصًا:.....١٠٠

الفصل الرابع: صبر الصديقين ١٠٢

تعريف الصديقين: ١٠٣

فائدة نفيسة في الإجماع على صديقية أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ١٠٨

عموم صبر الصديقين أفضل صبر بعد صبر الأنبياء والمرسلين: ١٠٨

أصل صبر الصديقين: مخالفة النفس والهوى والشيطان: ١٠٩

صبر الصديقين على قيام الليل: ١١١

صبر الصديقين على الاستقامة على دين الله: ١١٢
صبر الصديقين في التمسك بالسنة: ١١٤
صبر الصديقين على الصمت إلا في خير: ١١٥
صبر الصديقين على اختيار اليسر في الأمور ما لم يكن فيه إثم: ١١٧
صبر الصديقين على تحقيق المروءة: ١١٨
صبر الصديقين على الفقر: ١١٩
صبر الصديقين عند الفتن العظام: ١٢١
صبر الصديقين على مؤاذاة الناس: ١٢٤
ومن صبر الصديقين عدم الانتقام للنفس: ١٢٥
صبر الصديقين حتى نالوا درجة الإمامة في الدين: ١٣٣
صبر الصديقين في مجال العلم الشرعي: ١٣٣
صبر الصديقين في الرحلة في طلب العلم سابقًا ولاحقًا: ١٣٦
صبر الصديقين على من يخالفهم في مسائل اجتهادية: ١٤٠
صبر الصِّديقين في مجال الدعوة إلى الله: ١٤١
صبر الصِّديقين في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ١٤٣
صبر الصديقين على جور الحكام: ١٤٦
صبر الصديقين في ساحة الجهاد في سبيل الله: ١٤٩
صبر الصديقين في تقديم النفس فداء للإسلام والمسلمين: ١٥١

صبر الصديقين عند الموت:..... ١٥٤

الفصل الخامس: ما يناله من اتصف بصبر الأنبياء والمرسلين ١٥٧

القسم الأول: ما يناله الصابرون في الدنيا..... ١٥٨

القسم الثاني: ما يناله الصابرون في الآخرة:..... ١٦٧

الفصل السادس: فوارق في الصبر والصابرين ١٧١

الفرق بين الصبر والتصبر، والاصطبار والمصابرة:..... ١٧١

الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام: ١٧٣

صفة الصبر لله تعالى مغايرة لصفة الصبر في خلقه:..... ١٧٤

الفرق بين الصبر لله والصبر بالله: ١٧٥

الفرق بين صبر الأنبياء والرسل وصبر أتباعهم:..... ١٧٦

الفرق بين صبر الأنبياء وصبر الرسل:..... ١٧٧

الفرق بين العقل والصبر:..... ١٧٧

الفرق بين الصبر والحلم وقاعدة ذلك:..... ١٧٨

الفرق بين الصبر والشكر :..... ١٧٩

الفرق بين صبر الفقراء وصبر الأغنياء:..... ١٨٠

الفرق بين الصبر على السراء والصبر على الضراء: ١٨٢

الفرق بين صبر الجوارح وصبر اللسان:..... ١٨٣

الفرق بين الصبر على المصائب وبين الصبر على المعايب: ١٨٤
الفرق بين الصبر عن المعاصي والصبر على المصائب: ١٨٤
الفرق بين الصبر على أداء الأوامر واجتناب النواهي: ١٨٥
الفرق بين صبر الإنسان في اجتناب قتال المسلمين وبين قتاله من قصد هلاكه. ١٨٧
الفرق بين صبر فيه الشكوى إلى المخلوق وصبر ليس فيه الشكوى إلا إلى الخالق. ١٨٨
الفرق بين كظم الغيظ والصبر: ١٨٨
الفصل السابع: ذكر ما ينافي الصبر المحمود ويضاده ويقدح فيه ١٨٩
قاعدة هذا الفصل: ١٩١
وما ينافي الصبر ويضاده كالآتي: ١٩١
الأول: الصبر عن الله: ١٩١
الثاني: شكوى الخالق إلى المخلوق: ١٩١
الثالث: الاعتراض على الله في قضائه وقدره على العبد: ١٩٢
الرابع: الهلع والجزع: ١٩٢
الخامس: إظهار المصيبة والتحدث بها تشكيًا: ١٩٤
السادس: شق الثياب عند المصيبة ١٩٤
السابع: العجلة: ١٩٥

الثامن: الضيق الشديد:..... ١٩٥

التاسع: الصبر على الأمور الدنيوية أكثر من الصبر على أمور الدين: ١٩٦

العاشر: الغضب:..... ١٩٧

الحادي عشر: اليأس:..... ١٩٨

الثاني عشر: قبول الاستفزاز والاستخفاف: ١٩٨

الثالث عشر: الصبر المحمود تكتنفه آفتان خطيرتان:..... ١٩٩

سل الله العافية ولا تَدَّعِ الصبر: ١٩٩

المحتويات..... ٢٠١